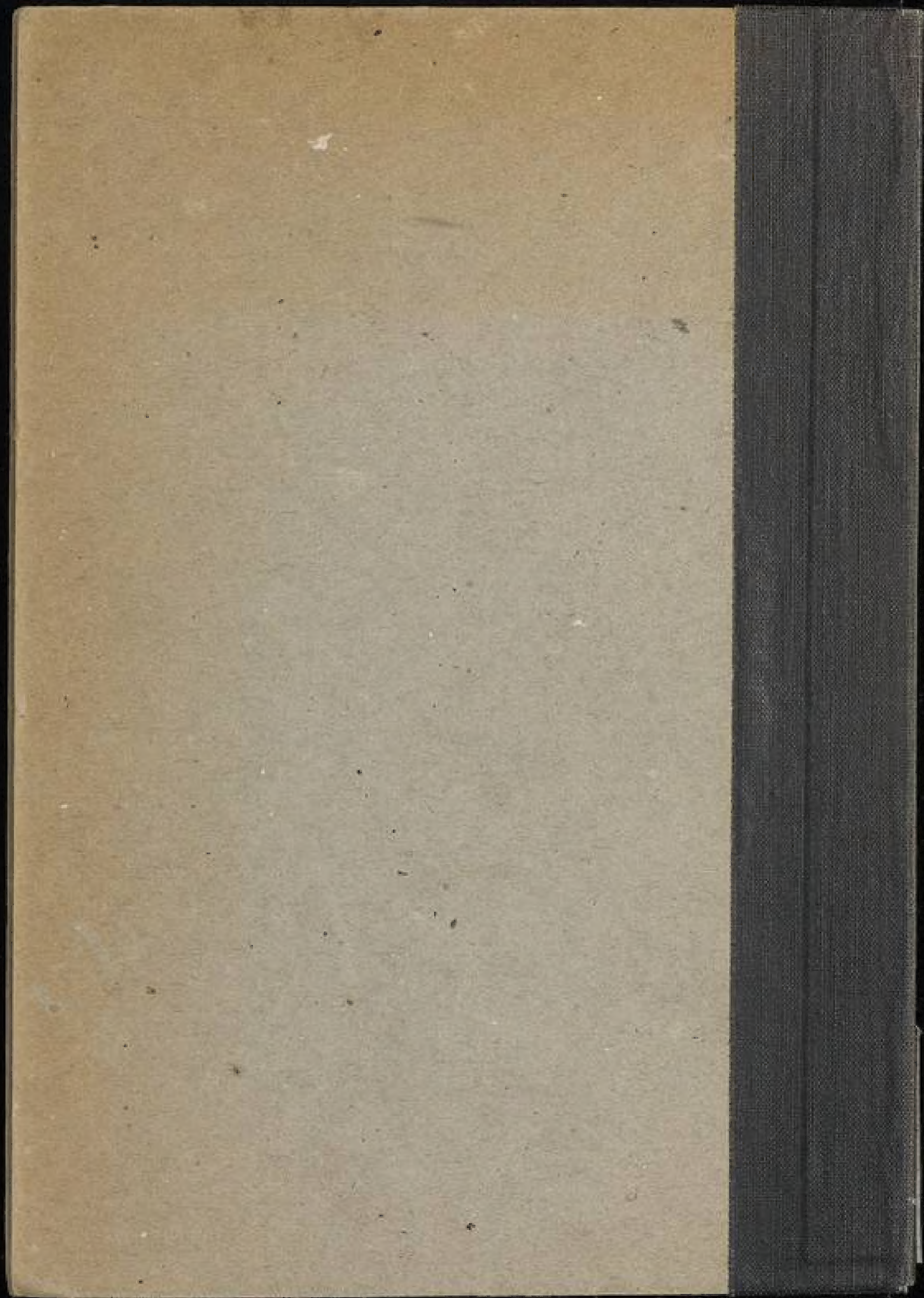
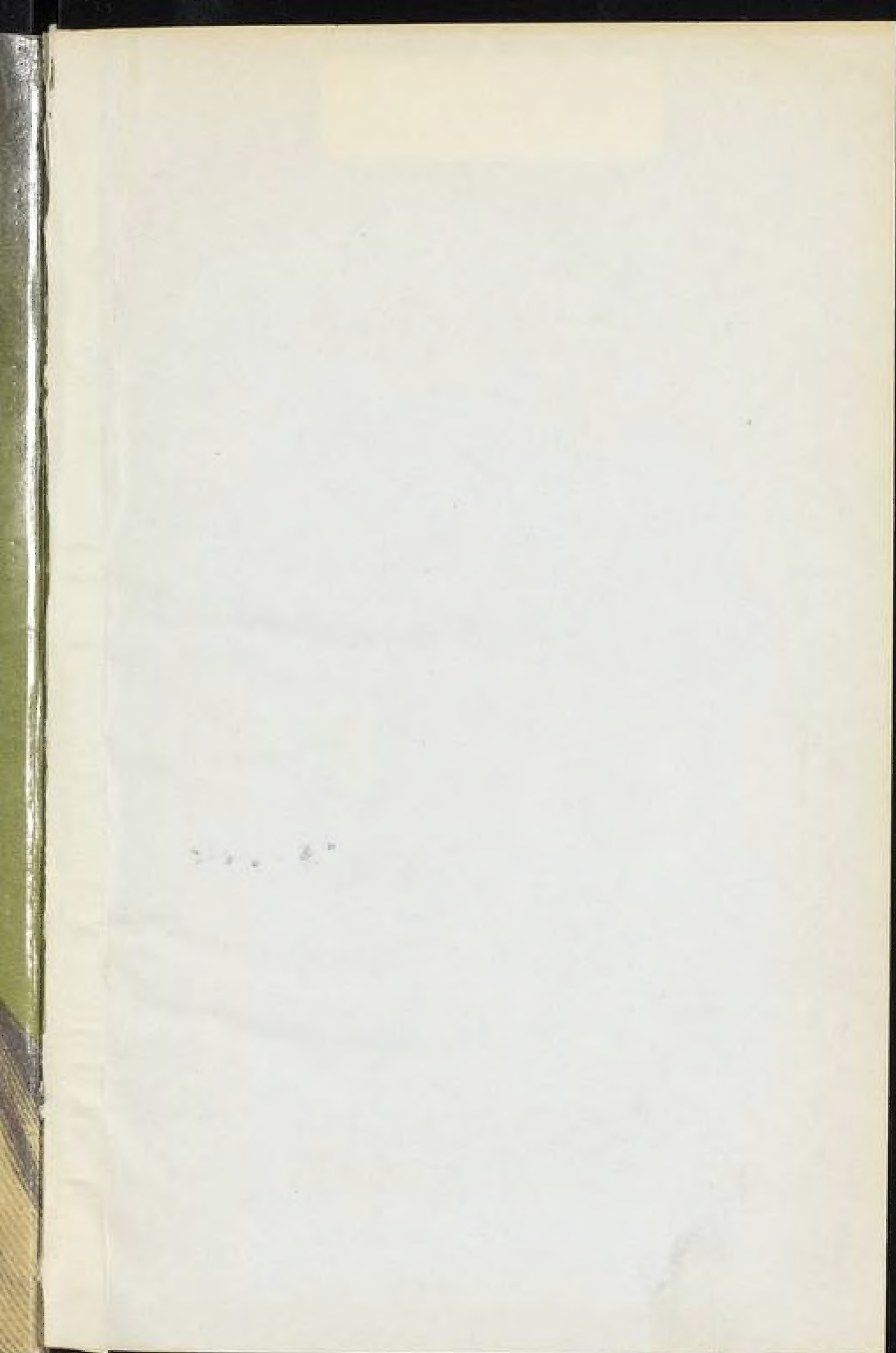




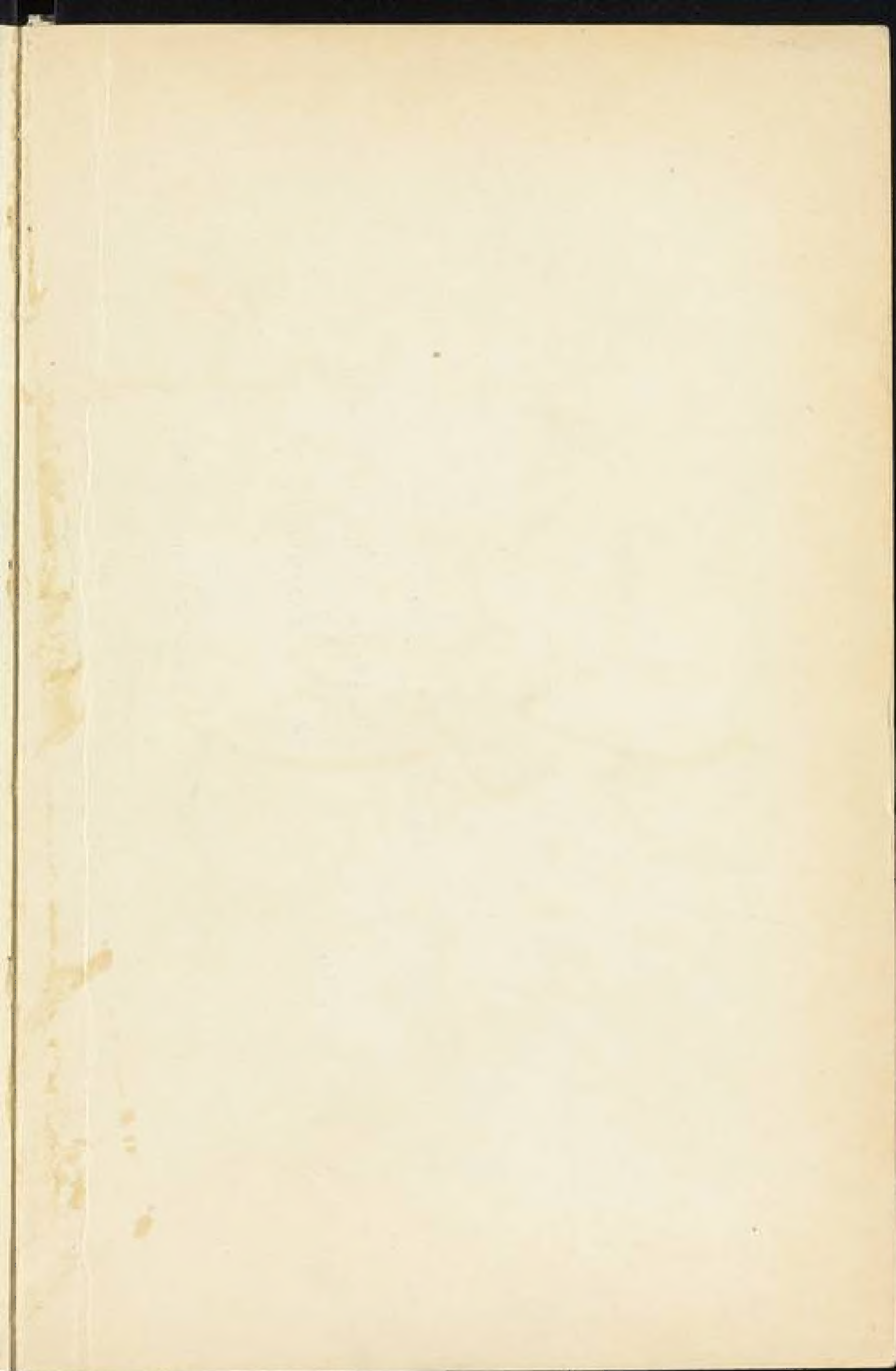




يوسف السباعي

البحث عن جسد







يوسف السباعى

البحث عن جسد

كما بدأكم تعودون

قرآن كريم

الناشر مكتبة الخانجى

للمؤلف

الكتاب	الطبعة	الناشر والطبع
أطيـــاف	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧	الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
نائب عزرائيل	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧	الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
اثنتا عشرة امرأة	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
خبايا الصدور	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر : دار النشر العربية — طبع في دار الاحد ببيروت : لبنان
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
يا أمة ضحكت	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
اثنا عشر رجلا	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
أرض النفاق	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة النهضة — طبع في مطبعة السعادة الكبرى
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة النهضة — طبع في مطبعة مصر

العنوان	الطبعة	السنة	الناشر والطبع
فى موكب الهوى	الطبعة الأولى	سنة ١٩٤٩	الناشر : دار الفكر العربي — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية	سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربي — طبع فى شركة فن الطباعة
من العالم المجهول	الطبعة الأولى	سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
هذه النفوس	الطبعة الأولى	سنة ١٩٥٠	الناشر : دار الفكر العربي — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية	سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربي — طبع فى شركة فن الطباعة
إنى راحلة	الطبعة الأولى	سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية	سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجي — طبع فى شركة فن الطباعة
مبكى العشاق	الطبعة الأولى	سنة ١٩٥٠	الناشر : دار الفكر العربي — طبع فى مطبعة الاعتماد
بين أبو الريش وجنينة ناميش	الطبعة الأولى	سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجي — طبع فى شركة فن الطباعة
أغنيــات	الطبعة الأولى	سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
أم رتيبــة	الطبعة الأولى	سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة
هذا هو الحب	الطبعة الأولى	سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربي — طبع فى شركة فن الطباعة
صور طبق الأصل	الطبعة الأولى	سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة

بين الأطلال	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
السقامات	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
سُمّار الليالى	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى مطبعة الاعتماد
الشيخ زعرب	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
نفحة من الإيمان	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى مطبعة الاعتماد
وراء الستار	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : نادى القصة طبع فى مطبعة روز اليوسف
ست نساء وستة رجال	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
هذه الحيـــاة	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
البحث عن جسد	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة

الإهداء

كنت فى سنين الطفولة الخوالى لا أكاد أنتهى من الدراسة فى نهاية الأسبوع حتى أعدو إلى بيت جدتى أم أبى حاملا لها هديتى الدائمة .. كيساً من « دقة السمسم ونوى المشمش » أبتاعه من عطار فى شارع السد .

وفى إحدى الدور بنهاية شارع زين العابدين ، كانت تضطجع فى ركن من إحدى الحجرات ، بجسدها الطويل النحيل ، وشعرها الأبيض الفضى ، مشلولة لا تستطيع الحراك .. فأرتمى بين أحضانها وأسلمها الهدية ، فتضمنى إليها وترقدنى بجوارها .. وتدللنى ، وتقص علىّ أحسن القصص .

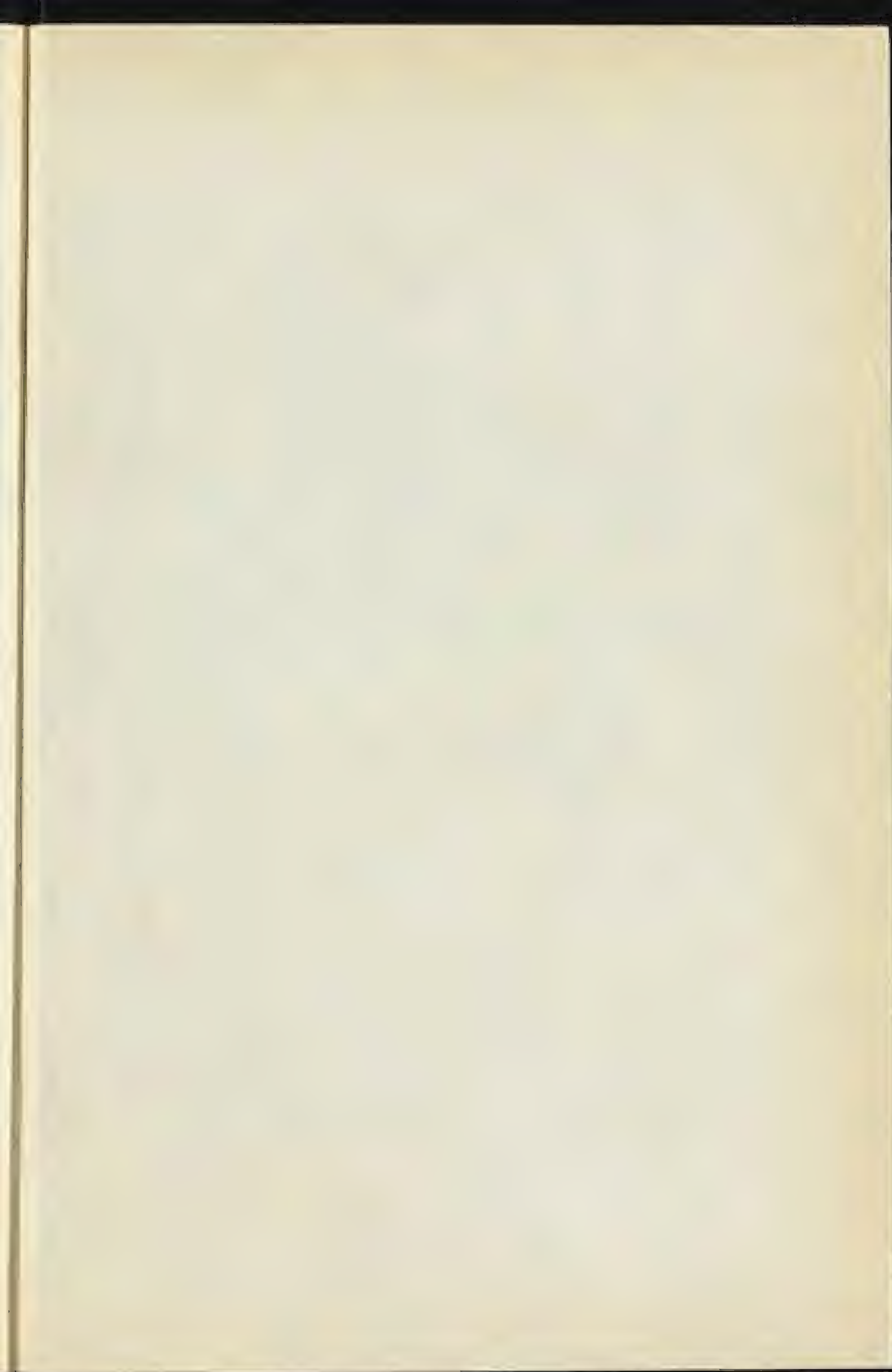
كنت أحبها .. وكنت أشعر أنها أول المحبين لى .. ومرت بنا السنون ، فرحلت عنا بعد أن ثكلت أبى .. وبين آونة وأخرى أشعر بالحنين إليها .. وأود لو أعدو إليها حاملا « كيس الدقة » .

أما وقد باتت الهدية المادية متعذرة .. فهل لها أن تتقبل منى هذا الكتاب هدية متواضعة .

إلى أول من أحبنى .. وأول من أحببت .. إلى أبدع من قص .. وأعذب من روى :

إلى « نينه أم طه » ..

يوسف السباعى



مقدمة

بيني وبين عزرائيل صداقة قديمة . . وحب غير مفقود . .
ولقد قضيت فى صحبته فترة طويلة وأنا أعمل معه « نائب عزرائيل » وأهديته إليه عن طيب خاطر . . وأذكر أنى قلت له فى نهاية الإهداء :

« وإنى يا سيدى فى انتظار اللقاء . . إما على صفحات كتاب آخر ، وإما فى السماء . . ما بى من خشية ولا رهبة ، فالحياة عندى والموت سواء » .

ويبدو أن اللقاء بيننا قد عزّ فى السماء . . وأنه ما زال فى عمرنا الشقى فسحة وبقية . . ولقد أوحشنى صاحبى فلم أجد بدآ من أن ألقاه فى كتاب آخر . . فاستدعيته لأسامره وأحاوره .

وجرى بيننا حديث ذو شجون . . عن الأرض والسماء .

وعن الشعوب والملوك والزعماء .

ولقد جرى الحديث بيننا سهلا غير متكلف ولست أدرى أأسميه قصة أم مسرحية أم مجرد حوار أخرجت به بعض ما يجول فى خاطرى .

ليكن ما يكون ؛ فلقد سبق أن قلت فى مقدمة أحد كتبي إنى عند ما أكتب . . أكتب متحرراً من كل شىء حتى من قيود الهدف . . وإنى أترك الأفكار تنساب من ذهنى كما يتراءى

له ولها فأريحه من حملها . . وأريحها من حصاره .

وهكذا لا أستطيع أن أسمى كتابي هذا سوى أفكار متسابقة حاولت أن أضعها في قصة .

ثمة شيء أود أن ألفت النظر إليه لأنى أعتقد أنه ربما كان عاملا هاماً فى طريقة كتابتى لهـذا الكتاب . . وهو أنى كتبت الفصل الأول والثانى قبل ٢٣ يوليه ١٩٥٢ والفصل الثالث بعد هذا التاريخ . . ولقد قلت فى آخر الفصل الثانى وأنا أكتبه فى ٢٠ يوليه إن شيئاً لابد أن يحدث .. وبعد ثلاثة أيام حدث الشيء .

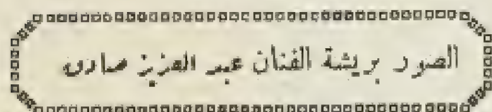
ولم أكن أعرف وأنا أختم الفصل الثانى كيف أختم الكتاب وماذا أقول فى الفصل الثالث . . ولكن الأيام التالية . . استطاعت أن تمنحنى الخاتمة . . فى يسر وسهولة .

وبعد . . إليكم الكتاب . . وإلى عزرائيل الشكر . . وما زلت أقول له ما قلت فى الكتاب السابق :

« إنى فى انتظار اللقاء . . إما على صفحات كتاب ثالث . . أو فى السماء » .

والسلام عليكم ورحمة الله .

يوسف السباعي


الصور بريشة الفنان عبد العزيز صادق

الفصل الأول

[المنظر في السماء .. أنا وعزرائيل فوق هام السحب بجوار كوم من الدفاتر والسجلات] .





عزرائيل يبدأ الحديث :

ـ قل . . ما رأيك . . ؟

ـ فى ماذا . . ؟

ـ فى العودة . . !

ـ أتتكلم جاداً . . ؟

ـ بالطبع . . ومتى رأيتنى أهزل . . ؟

ـ ما رأيتك إلا هازلا . . أتنكر أنك شيخ الهازلين ؟ أتنكر أن مجيئك بى ومحاولتك إعادتى هو فى ذاته مهزلة كبيرة . . ؟ فيم كان المجىء ، وفيم كان كل ذلك الجهد الذى تجشمته . . إذا كنت تريد العودة بى مرة أخرى . . ؟

ـ أنا لا أريد العودة بك . . إنك مخير بين العودة أو البقاء .

ـ ولكن إذا كان بقائى وعودتى سواء . . بالنسبة لكم . . فلمَ كان حضورى إذن ؟

ـ كان حضورك ضرورياً أول الأمر . . كان لا بد أن آتى بك . . أما الآن ! ! . فقد جد جديد . . يجعلنا نخيرك بين العودة والبقاء .

ـ المسألة تستدعى التفكير فإنها مسألة تقرير مصير . .

ولا أظن الإنسان يستطيع أن يقرر مصيره هكذا فى غمضة عين . . يجب أن تمهلنى حتى أوازن بين الأمرين .

— إننا فى عجلة . . ليس لدينا وقت . . فلا بد لنا من العودة بمائة شخص . فنحن فى حاجة إليهم هناك . . عندنا حالة عجز فى المستجدين .

— لا أفهم . . إنك تتكلم بالألغاز . . ما هو هذا الطارىء الذى جد . . ؟ وماذا تعنى بحالة عجز فى المستجدين ؟

— أرجوك . . ليس لدىّ وقت لتفهيمك . . يجب أن أذهب إلى غيرك . . قل . . أتمكث أم تعود . . ؟

— لن أقول حتى أفهم . . أفهم جيداً . . إنى إنسان غبى فيجب أن تفهمنى جيداً ، وإلا فلن أجيب ، وسأدعك وحدك تتحمل مسئولية عودتى أو بقائى .

— ماذا أفهمك . . ؟ قلت لك أن لدينا حالة عجز فى المستجدين . . فماذا أقول أكثر من ذلك ؟ . . ليس لدينا أنفار تكفى للعدد المطلوب من المستجدين . هل فهمت ؟ ؟

— لم أفهم . . ألم أقل لك إنى غبى ؟ . أفصح أكثر من ذلك ! !

— ليس لدينا من الأرواح الجديدة ما يكفى للمواليد الجدد . . المطلوب إنزالهم إلى ظهر الأرض . . هل فهمت ؟ .

ـ آه . . قل هذا . . فهمت . كان يجب أن تفصح من أول الأمر . كيف كنت أستطيع فهم تعبيراتك عن المستجدين والأنفار . . ؟

ـ حمداً لله أنك فهمت .

ـ إذن فأنت تريد أن تكمل العجز من الأرواح «الرديف»؟! تريد أن تكمل المستجدّين من الأنفار المسرّحين؟!

ـ تماماً . . لقد فهمت .

ـ أجل . . فهمت . . فهمت . . وتريد منى ، بذلك . . أن أعود مستجداً مرة أخرى . . بعد كل تلك الخدمة الطويلة والمهانة . . . ؟

ـ أجل . . !

ـ لا . . لا . . لا أقبل . . إن كنت تريدنى أن أجدد مدة أخرى بشروط مناسبة فقد أقبل . . أما أن أعود مرة ثانية مستجدّاً . . فمستحيل .

ـ تجدد مدة أخرى . . ؟ أمجنون أنت ؟ . . كيف يمكن هذا . . ؟

ـ أنا المجنون ؟ . . الله يسامحك . . ماذا ترى فى قولى من الغرابة . . ؟ أغريب أن أعود لأواصل الحياة مرة أخرى . . ؟

– بأى جسد . . ؟

– جسدى . . !

– وبأى اسم ؟ وأية شخصية ؟

– اسمى وشخصيتى .

– جسدك . . واسمك . . وشخصيتك ؟ ! أى جنون هذا الذى تتحدث به ؟ . . أين جسدك واسمك وشخصيتك؟ أنسيت أنه لم يعد من جسدك سوى عظام نخرة لا تكاد تتماسك . . ؟ . . وأن اسمك قد أصبح على أحسن تقدير : «المرحوم فلان» ؟ أما شخصيتك فقد أضحت على حد قولهم : غير ذات موضوع . . فكيف تريد بعد كل هذا أن تواصل الحياة كما كنت ؟ . . أو كما تقول . . تجدد مدة أخرى ؟ ؟ لا . . لا . . لا تكن سخيفاً .

– أنت وشأنك . . هذه هى الطريقة الوحيدة التى أقبل أن أعود معك بها .

– ولكن . . .

– لا . . لكن . . لا فائدة من المناقشة . . ليست هناك قوة تستطيع أن تجبرنى على العودة معك ولبدأ جديداً . . !

– ولكن ماذا يضيرك ما دمت قد قبلت العودة . . أن تبدأ من جديد . أو تواصل حياتك الأولى ؟

ـ وعثاء السفر . ووعورة الطريق . . يضيرنى أن أبدأ الطريق من أوله . . إنى ـ من أجلك ـ أستطيع أن أحتمل بقيته فذلك أمر يمكن احتماله بل هو الأمر الطبيعى الذى كنت قد هيأت نفسى له . . لو لم تنتزعنى من الحياة بتلك الطريقة المفاجئة .

ـ مفاجئة لك . . ولكنها مبيتة عندنا . . مدرجة فى القائمة .

ـ ما علينا . . هذا أمر لا يهم . . ما حدث قد حدث وما كان علىّ سوى القبول والإذعان . . المهم هو أن تفهم جيداً . . . إنى لا أقبل قط أن أركب ما ركبت من الصعاب مرة أخرى . . ولا أن أعود فأحمل نفسى بمحض إرادتى أثقال الشقاء وأكداس التعاسة .

ـ شقاء . . ! تعاسة . . ! يا لك من ناكر للجميل كافر بالنعمة . . (وأما بنعمة ربك فحدِّث) .

ـ من قال إنى لم أحدث بنعمته . . وأحمده على مكروهه ، لقد حدثت بنعمته فأضاعها الحساد . . وحمدته على مكروهه فحق علىّ قوله : (لئن شكرتم لأزيدنكم) ، وهكذا زالت النعمة وزاد المكروه . . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . . أرجوك . . ابحث عن أبله غيرى . .

يقبل أن يبدأ حياته من جديد . . !

— إذا كنت أنت لم تقبل . فكيف يقبل غيرك . . ؟

— أنا . . ؟ ! ومالى أنا ؟ . ماذا يميزنى من غيرى ، حتى أقبل . . ؟

— أيها الكافر الناكر ؟ تتحدث عن وعثاء السفر ووعورة الطريق . . ؟ طريقك المليء بالورود المفروش بالرياحين . . اى صعاب ركبتها به . . وأى شقاء صادفته فيه . . أيها المحظوظ السعيد . . المنعم المرفه . . ؟ حقاً . . قتل الإنسان ما أكفره .

— لا فائدة ، أرح نفسك ليقتل الإنسان أو لا يقتل ، فما عاد لى به شأن . إنى لم أعد بعد إنساناً . . ولا أود قط أن أعود إنساناً . . أنا محظوظ سعيد . . ؟ سامحك الله على فريتك . . دعنى وشأنى ، أرجوك . . محظوظ أم غير محظوظ ، إنى لا أرغب فى الإعادة . . انتهينا . . إنى لا أحب السعادة ولا الحظ . . أأنت شريكى ؟ ! أنا سعيد هكذا . . ؟

— أنت وشأنك . . إنى لم أضربك على يدك ، ولكن أتنكر أنك كنت مثلا لإنسان سعيد . . ؟ أتنكر أن حياتك كانت مليئة بالهناء والنعيم ؟

— إنى لا أذكر فى حياتى هناء ولا نعيا .

– تماماً كالقطط . . تأكل وتنسى .

– لم آكل ولم أنس .

– تذكر جيداً . . !

– لا أتذكر سوى الشقاء والبلاء . .



– سأريك أنك كذّاب أشر !

– كيف . . ؟

– سأزن لك سعادتك فى الحياة وشقاءك . . وسترى أى الكفتين أرجح . . وهذا هو الميزان . . سأضع فيه ما صادفت من أشواك وما لقيت من أزهار .

– أزهار ؟ ! ! أزهار ؟ ! ستضيع وقتك فى البحث عنها عبثاً . .

– سترى .

– هيا . . ابدأ الوزن .

– لن يكون قبل أن تعدنى وعداً .

– ما هو . . ؟

– أن تعود معى إذا رجحت كفة السعادة .

– أعدك بشرفى .

ـ لاداعي للقسم بشرفك . فهو شيء لا قيمة له هنا . !

ـ كيف . . ؟

ـ الشرف هناك له قيمة ! لأنه شيء نادر الوجود . . أما هنا فلا وجود له . . لأنه أمر طبيعي مفروغ منه . . لا قيمة للجمال بغير قبح . . ولا قيمة للشرف بغير قلة الشرف !

ـ مفهوم . . مفهوم . . دعنا نبدأ الوزن . . وكفى فلسفة . . ارفع الميزان في يدك جيداً ، حتى أرى الكفتين متساويتين متوازيتين . أجل . . هكذا . . هات ما لديك من أزهار . . ودع الأشواك لى . فسأعرف كيف أغرق بها الكفة .

ـ اتفقنا . . أنا أضع الأزهار في كفة . . وأنت تضع الأشواك في كفة . . حتى يفرغ كل ما لقيته في حياتك من أزهار وأشواك . . ثم ننظر كيف تكون النتيجة .

ـ أجل لتبدأ أنت . . !

ـ هذه أول أزهار حياتك . . أزهار الطفولة الحلوة الناعمة ! أتذكر حياتك وقتذاك . . ؟ حياة المرح واللعب ، وخلو البال والتحرر من المسئوليات والأعباء . . كنت مخلوقاً مرفهاً مدللا . . وهل نسيت جدتك « نينا أم طه »

ونسيت تدليلها لك ورعايتها إياك . . ؟ والأقاصيص التي كانت تقضي الساعات الطوال في قصها عليك . كنت وقتذاك « سوساه » المعزز المكرم . إني لا أكاد أبصر في حياتك وقتذاك سوى أزهار فوق أزهار . . أغلب ظني أن كفة الميزان ستفيض بها . سأضع بعضاً منها فقط خشية أن تهبط الكفة مرة واحدة ، ولا أجد ما يعادلها من الأشواك !

— لا تخش شيئاً ، ضع كل ما في جعبتك . إن الأشواك متوافرة . . لقد بارك الله فيها فتوالدت وكثرت .

— خذ إذن كل هذه الأزهار وهذه أيضاً . . وهذه . . وهذه . . أرنا الآن ما لديك من أشواك . . في تلك الحقبة من الحياة . . ألديك ما يعادل كل هذه الأزهار . . ؟

— لديّ الكثير . . الكثير جداً . . ولكني لن أتعب نفسي في جمعها كاملة . . سآخذ منها شوكة أو شوكتين ، أعادل بها كل أزهارك . . إن الأزهار لا تثقل كفة . . إنها خفيفة كالقش . . إنها ورق . . سريع الذبول سريع الجفاف . . يودي بها الزمن وتذروها هبة من الرياح . أما الأشواك فهي باقية على الزمن . . لا تجف ولا تذبل . بل تزيدها الأيام حدة . جرحها دام وقرحها مسموم .

— كفى ثرثرة . . وهات واحدة إن كنت صادقاً .

— خذ ، هذه «توفيق أفندى» وهذه «ستى أم عطية» .
— توفيق أفندى .. وأم عطية ؟ ! ! لا أفهم ما تعنى !!
— أيهـــا المضلل . لِمَ ذكرت «أم طه» ونسيت «أم عطية» ، لِمَ ذكرت جدتى أم أبى ونسيت جدتى أم أمى ؟ لِمَ ذكرت مدللتى ونسيت معذبتى ..؟ أنسيت كيف كانت تعتقد أنى حرمت أخى محموداً اللبن لأنى ولدت بعده بسنة .. فأخذتنى - وأنا رضيع - بجريرة حرمانه .. فأحبته وأبغضتنى ، وأعزته وأذلتنى . كانت تقول «محمود محمود» «بلا يوسف .. بلا يوسف» .. كانت تحمل لى فى قلبها — رحمها الله — حقداً دفيناً .. وسلموا لها أمرى ففرضت من نفسها (ديكتاتوراً) على طفولتى .. وجعلت منها قطعة عذاب .. كنت أرى فى سفرها إلى البلد عيداً .. وفى عودتها مصيبة وبلاء .. ضع هذه الشوكة فى الميزان أيها المخادع .
— ضلة لك .. إن قلبك أسود لا ينسى السيئة .
— لا لا .. هذه تهمة باطلة . أنت الذى أرغمتنى على أن أتذكر . ومع ذلك فقد غفرت لها .. وكنت أول من رعاها فى موتها .
— ما علينا .. هذه «ستك أم عطية» فى الميزان .. ماذا تريد بعد ذلك ..؟

– توفيق أفندى . .

– ومن يكون ؟

– مدرس الإنجليزية فى مدرسة محمد على الابتدائية أذكره جيداً وأنا فى الثانية الابتدائية . . أحول العينين . . مبروم الشوارب . . أبيض الوجه أحمره . . قصير القامة ، طويل الطربوش فاقعه . . شديد الأناقة . . كحلى البذلة . . ياقته بيضاء صلبة (منشاة) .

– وما دخل كل هذا بشقائك وتعاستك ؟

– سن المسطرة . . سن المسطرة يا أستاذ أجارك الله .

– ما باله . . ؟

– يهوى على ظاهر اليد . وعلى الأصابع ، كان توفيق أفندى يسألنا فى أول كل حصة عن معانى الكلمات التى درسها لنا فى الحصة السابقة . ولا أذكر



أنى ضربت كثيراً . ولكن شقائى لم يكن من مجرد الضرب . . بل كان من انتظار الضرب وتوقعه وتذكره . كان انتظار البلاء شراً من وقوعه ، وكانت حصة الانجليزى مصدر

بلائى وشقوتى . . إن الاحتلال لم يعلمنى كره الإنجليز . ولكن الذى علمنيه هو توفيق أفندى . لقد جعل الإنجليز واللغة الإنجليزية ألد أعدائى . ولا أذكر بعد ذلك أنى رسبت فى امتحان إلا كانت اللغة الإنجليزية هى السبب . أرجو أن أضع توفيق أفندى فى الكفة بشواربه ومسطرته .

— أيها الأحمق . . تظن أن مجرد عقاب مدرس لتلميذ بليد سيرجح كفة شقائه ؟!

— هذا ليس شأنك . ضعه أولا .

— ها كه . .

— أمسك الكفة حتى لا تهوى إلى الأرض ، أرأيت ؟ أرأيت أزهارك الخاوية الفارغة . . ؟ إنها لا تزن مثقال شوكتين . ما رأيك فى الطفولة السعيدة المدللة . . ؟ انظر كيف خفت موازين السعادة فيها حتى باتت لا توازى حفنة شقاء . ما من إنسان إلا وله أحزانه وبلواه . .

— اصبر قليلا ، ما زال لدىّ من الأزهار الشيء الكثير . سأرجح كفتى حالا . دعنا من طفولتك البائسة ومن أم عطية وتوفيق أفندى . لننتقل إلى صباك اليانع المورق النضر . دعنا نجمع كل هذه الأزهار التى نثرها عليك أبوك . . أو على الأصح صديقك وصاحبك ، بل

إنى سأضعه هو نفسه فى الكفة . . فهو خير ما أستطيع أن أثقل به كفة سعادتك . . أتذكر أنه كان بين الآباء نسيج وحده . . ؟

ـ بين الآباء فقط ؟

ـ بل بين الناس أجمعين . أتذكر فلسفته فى الحياة . . ؟ إنه ما أنبك ولا لامك قط . . وعندما رسبت فى الامتحان ونجح أخوك . . كافأك وأهمل أخاك . فلما دهشت والدتك وسألته كيف يكافىء الراسب ويهمل الناجح أنبأها أنك أحق بالعزاء . وأنه يكفى لأخيك فرحة النجاح . . أتذكر كيف كان يقرأ عليك قصصه ويأخذ رأيك فيها وهو الكاتب العبقرى وأنت ما زلت طالباً فى السنة الأولى الثانوية . . ؟ أتذكر ضحكه الدائم ومزاحه الذى لا ينقطع ؟ أتذكر فكاهته ونكاته وصوته يعلو بالغناء فيصل إلى سابع جار ؟ سأضعه فى كفتى . . فقد كان وحده مصدر سعادة .

ـ ارفعه أيها الغبى . ضعه فى كفتى أنا . . ما كان أغناك عن أن تذكرنى بكل هذا . إنه زهرة حفت بالشوك . انظر إلى مصدر السعادة كيف جعله القدر مصدر شقاء . . أتذكر عودته إلى الدار ذات يوم ورأسه مثقل وجسده منهوك وقدماه لا تكادان تحملانه ؟ أتذكر كيف رقد على الفراش



وراح فى غيبوبة .. إنى أذكره تماماً كأنى أراه رأى العين .. وهو راقد فى الحجرة المواجهة «للصالة» الفسيحة فى بيت الزمالك بجنينة ناميش .. لقد ظننا ما به مجرد تعب سريع الزوال ، ولكن الغيبوبة طالت ، واستدعينا الدكتور رضا ، ثم أخذ الأطباء يتوافدون على الدار الواحد بعد الآخر .. وأبصرت بطاقية الثلج توضع على رأسه بعد أن أزيل عنها الشعر .. وسمعت فيما سمعت من لغط أن ذراعه وساقه قد أصيبتا بالشلل .

ما بالك تنظر إلىّ مشدوهاً ؟ عبء الأشواك وضع فى كفى .. أى صدمة صدمتها وقتذاك .. أبى .. القوى الجسد المفتول الذراعين ، الذى لم يكف يوماً عن لعب «الدمبلز» «والساندوز» . والذى كان يقبض بكفه على كتف أى إنسان فيتهاوى أمامه . أبى .. الفخور بقوته المعجب بشكله يصبح رجلا مشلولا قعيداً ؟! لا لا .. هذا مستحيل . هذا أمر لا يمكن تصوره . ومع ذلك فقد أضحى الشلل بعد ذلك أمنية يأباها علينا القدر . فقد استمرت الغيبوبة ، واستمرت

الطاقية الثلجية ، واستمرت حقن الجلوكوز تدفع فى جسده الواحدة بعد الواحدة . . عشرة أيام وهو فى رقدته لم يفق سوى مرة واحدة . واحدة . ونحن ساهرون من حوله لم يغمض لنا جفن إلا فى الليلة العاشرة عندما ظننا أن حاله قد أخذ فى التحسن . ولكننا استيقظنا فى الفجر على حركة غير عادية وأُمر أخى (محمود) أن يسرع إلى دار قريبة بها تليفون لاستدعاء الدكتور رضا . . وانطلق أخى يعدو خارج الدار ووقفت أمام الفراش وبقية الأهل . إنى أذكر جيداً آخر ما رأيته . . لقد أخذ شهيقاً طويلا ولم يخرجه . وشهيقاً آخر ولم يخرجه . . ومرة ثالثة ورابعة . . ثم كف عن الشهيق والزفير . . وأخذت أنظر إليه وأنا لا أفهم . . حتى سمعت صراخاً من حولى .

وانطلقت من الدار أعدو وراء أخى لأطلب منه ألا يستدعى الطبيب . . لأن أبانا قد مات .

كانت كلمة غريبة على لسانى . . ولا أذكر أنى أفصحت بها فى أول الأمر . . بل قلت له « خلاص » . . فلما سألنى عما أعنى بكلمة (خلاص) قلت له : بابا . . مات .

كنت وقتئذ فى الرابعة عشرة . . وأذكر أنى ارتميت على الأرض أمزق الثياب وأغطية الأرائك بأسنانى غير مصدق

أن أبى مات . . حتى بدأ النعش يخرج من باب البيت . ورغب البعض فى أن يحجزونى فى البيت فلا أسير وراء النعش ، ولكنى انطلقت أعدو وراء الجنازة واندسست بين المشيعين ونظرى معلق بالنعش المحمول على الأكتاف وقد وضع على حامله طربوش أبى ، أما طربوشه الآخر فقد كان على رأسى .

وسارت الجنازة من السيدة إلى القلعة ، إلى قرافة المجاورين ، وأنا لا أدرى مما حولى شيئاً . ولا أبصر شيئاً إلا أبى الراقد داخل الصندوق الخشبى .

وبدأت مع السير أستشعر شيئاً من السكينة وأحس أنى سائر فى صحبة أبى . . وأن الفرقة لم تحدث بعد . . ولم يعد لى أمنية سوى أن يطول الطريق وتظل الجنازة سائرة إلى مالا نهاية ، ولكن النهاية حلت . . ووصلنا المقابر ثم ودعنا وافترقنا .

ضع الأشواك فى كفتى أيها الحاسد وكفكف دمعك وجفف عبراتك . . ذلك هو صباى اليانع الناضر المزدهر . ما كان أغناك عن نكء القرح وإثارة الذكرى .

— دعنا من هذا . إنى آسف . . لقد رجحت كفتك فى ذلك العهد . ولكنى كفيل بترجيح كفتى بعد ذلك فمازالت

فى جعبتى أكداس من أزهار السعادة .

– هات كل ماعندك .

– لحظات الحب المضيئة المشرقة . . التى كنت تحلق خلالها فى أجواء السعادة والنعيم . . أتذكر قلبك المرهف الخفاق ، ومشاعرك الفياضة المتدفقة ؟! كنت من حبك دائم الثمل . . دائم النشوة . كنت إنساناً سعيداً ما كففت عن الحب لحظة واحدة . . وما خمدت أشواقك أو انطفأ حنينك . . أتذكر ساعات النجوى ، وليالى اللقاء ؟ أتذكر الأصابع المتشابكة والأذرع المتعانقة ؟ أتذكر الأنفاس الممتزجة والشفاه المتلامسة والأعين المغمضة والنفوس الذائبة ؟ أتنكر ماصادفت من متع الحب وهنائه ؟ أى كفة تستطيع أن تتسع لكل مالقيت من أزهار الحب ؟ دعنى أحشدها كلها حتى أسكتك .

– أزهار الحب ؟ رويداً أيها الغافل . . أى أزهار هذه التى تتحدث عنها ؟ إنك لاشك لم تعرف الحب . . ألم تسمع أن لكل فعل رد فعل مساوياً له ومضاداً له فى الاتجاه . ؟ كذا الحب . . لكل حب رد حب مساو له أو يزيد عنه . ومضاد له فى الاتجاه . . كل ما تلقاه من سعادة فى الحب مردود بالربح المركب . . إذا نعمنا باللقاء مرة

شقينا بالهجر مرات . . مابالك تذكر الأنفاس الممتزجة والشفاه المطبقة وتنكر الليل الجاثم والمرقد الجافى .؟ مابالك تنكر النفس المسهدة والكبد الحرى ، والقلب المحترق . إن أزهار الحب التى وضعتها فى كفتك أزهار شائكة . . أشواكها أكثر من أوراقها . . انزع منها الأشواك وضعها فى كفتى . . أجل . . هكذا . . انظر . لقد رجحت كفتى . ماذا عندك بعد هذا من أزهار ؟

ـــ اطمئن . . لدىّ الكثير . الكثير جداً . . لن تغلبنى بأية حال . . خذ هذه . . أزهار النجاح . . أتنكر أنك كنت إنساناً ناجحاً محظوظاً ؟ لقد نلت كل ما تطلعت إليه ، ووصلت إلى كل ما أردت الوصول إليه .

ـــ أزهار النجاح دائماً تنتهى بأشواك الخيبة . . خيبة الأمل وانهيار المثل العليا . . كل ماتطلعت إليه نلته ، وكل ما أردت الوصول إليه بلغته ، ولكن كل مانلته وكل ما بلغته قد وجدته عندما أصبح ملك يدى تافهاً زائفاً . إن سعادة النجاح لا تدوم سوى لحظة خاطفة . . ثم يذهب أثرها عندما نكشف حقيقة ما كددنا فى سبيله .

ـــ ألم أقل لك أنك مخلوق كافر .

ـــ كافر بماذا ؟

– بنعمة ربك . . بكل ماتاقت إليه نفسك ووهبه له . ألم يحقق لك أملك ويهب لك العمل الناجح ، والزوجة ، والأولاد ؟

– أما العمل الناجح فقد أضعت فيه عمرى . . لقد تعادلت فيه أزهار التقدير مع أشواك الجهد . كنت أتسابق مع الزمن حتى غلبنى الزمن . ما حصلت على شيء إلا دفعت من حياتى ثمنه .

– والزوجة والأولاد . . ؟ ألم يكونوا زينة حياتك الدنيا ؟ ألم يغمروا حياتك بالأزهار ؟

– بالأزهار فقط ؟ ألم أقل لك أنك ، غشيم ، لاتعرف شيئاً عن الزواج أو الأولاد ؟ ضع كل مالديك من أزهارهم وسأرجحه بشوكة واحدة . . هات ما عندك .

– خـذ هذه . . وهذه . . وهذه . . هات أنت ماعندك .

– سأضع شوكة واحدة من أشواكهم . اذكر كيف وخزتنى وقتذاك فأقضت مضجعى عشرين ليلة . كانت الطفلة التى تبلغ ستة الأشهر متألقة مزدهرة . . لاغية باسمة . . حتى أصابتها وعكة جعلتها تغرق فى نوبة صراخ وبكاء ، ولم ندر ما بها ، واستدعينا الطبيب تلو الطبيب حتى تبين فى النهاية أنها

مصابة بالتهاب رئوى ، وبدأنا العلاج بالانتيفلوجستين ، والسيبازول . وانقضت مدة العلاج والحال كما هى واستدعينا (كونسلتو) من الأطباء ، فاتضح أنها قد أصيبت بصديد فى الرئة . تصور طفلة ذات ستة أشهر تصاب بصديد فى الرئة ولابد لعلاجها من إجراء البذل ؟ . وكان علىّ أن أمسك بها للطبيب حتى يدفع فى ظهرها بإبرته الكبيرة لكى تصل إلى الرئة حتى يمتص الصديد . واستمرت العملية يوماً بعد يوم . . وكان البنسلين لم يعمم استعماله بعد ، ولم نستطع الحصول عليه إلا بشق الأنفس ، وبدأنا الحقن ليل نهار كل ثلاث ساعات لا نكاد ننيم الطفلة حتى نوقظها . . وأعطيناها (الكورس) الأول مدة أسبوع فلم ينجح فكررناه أسبوعاً آخر . . لا يغمض لنا جفن ولا تهدأ لنا نفس .

هذه إحدى الأشواك المتكررة التى لا غنى عنها لكل أب رزىء بنعمة الأولاد . ما رأيك ؟ ألم أرجح الكفة . . ؟ أعندك أزهار أخرى ؟

— وما الفائدة إذا كنت تجد لكل زهرة شوكة ؟ إن من العبث أن أضيع وقتى معك . إنك مخلوق مشاكس .

— أرأيت أن الحياة لا تستحق العودة . . وأن البقاء

أحد؟ ألم يبلغك قول على كرم الله وجهه : «آه من قلة الزاد وبعد السفر » لقد طوينا الطريق وختمنا السفر ، وهيهات أن نعود . . ابحث عن أبله غيرى .

ـ عندى فكرة جديدة .

ـ ماهى ؟

ـ إذا كنت لم ترض عن حياتك ، فلعلك راض عن غيرها . ما رأيك فى أن أعرض عليك كشف المواليد ، وسجل حياتهم لتنتقى الحياة التى تحلو لك . ؟

ـ الحياة التى تحلو لى ؟ .

ـ أجل . . أظن أن هذه فرصة لم تسنح لمخلوق من قبل . . ستكون من تشاء . . ستتحكم أنت فى خلقك .

ـ هذه مسألة فى الواقع تستدعى التفكير .

ـ أى تفكير أيها الأبله ؟ ! إنها لا تستوجب التفكير أبداً . . يجب أن تقبل بلا تفكير .

ـ بلا تفكير ؟ .

ـ أجل . . بلا تفكير ولا تخيير . . إذا كانت حياتك أنت لم تعجبك . . وخرجت منها ـ كما تقول ـ خاسراً . . وغلب فيها شقاؤك سعادتك ، ورجحت كفة أشواكها كفة أزهارها . . فلا عليك . . خذ غيرها .

ـــ أية حياة ؟!! .

ـــ أجل ! أية حياة . . إذا كان « توفيق افندى » قد هشّم أصابعك ، وإذا كانت جدتك « أم عطية » قد سوّدت عيشك ، وإذا كان فقد أباك قد أوجعك ، ومرض ابنتك قد آلمك ، فانتق حياة بلا توفيق أفندى ، وبلا أم عطية ، وبلا غير هذا مما أساءك فى حياتك الأولى .

ـــ لا . . لا . . لا تحاول خداعى . . كل حياة لها أحزانها وأوجاعها .

ـــ أنت عنيد مكابر . . كان يجب ألا أتعب نفسى معك فى النقاش . . لقد أضعت وقتى سدى . . إن هناك آلاف الأرواح التى تقبل الهبوط معى راضية مسرورة .

ـــ إذهب إليها إذاً .

ـــ طبعاً سأذهب . . وسأدعك وحدك تصلى ناراً حامية .

ـــ ناراً . . إيه ؟ .

ـــ حامية .

ـــ أنا أصلى ناراً حامية ؟ .

ـــ ولِمَ لا . . أظننت نفسك قديساً أم نبياً ؟

ـــ أمتأكد أنت من أنى سأصلى ناراً حامية ؟ .

ـــ طبعاً .

ـــ إذاً انتظر . . لماذا لم تقل هذا من أول الأمر فتريحنى وتريح نفسك . . أين الكشف ؟ .

ـــ أى كشف ؟ ! .

ـــ كشف المواليد الذى تقول عنه . . أو كشف المستجدين المطلوب تجنيدهم فى الحياة .

ـــ ليس كشفاً .

ـــ ماذا يكون إذاً ؟ .

ـــ سجل . . كبير حافل .

ـــ ليكن . . سجل أو كشف . . أين هو حتى أطلع عليه . . وأختار حياة أخرى أهبط إليها .

ـــ تعال . . اتبعنى إلى هذا الركن . . أجل هنا . . أترى هذا؟

ـــ تقصد هذا الجبل ؟ .

ـــ ليس جبلا .

ـــ ماذا يكون إذاً ؟

ـــ هذا هو سجل المخلوقات .

ـــ الذى تريدنى أن أطلع عليه ؟ .

ـــ وتختار منه الحياة التى تلائمك .

ـــ أنا أقرأ كل هذا ؟ .

ـ ألست أنت الذى تريد الاختيار ؟ ! .

ـ ظننته كشفاً أمر عليه فى لحظات كقائمة الطعام . . تخيل لو جلست فى مطعم وأحضروا لك قائمة طعام فى سجل مثل هذا الجل الذى تريدنى الاطلاع عليه . . ماذا كنت فاعل ؟

ـ كنت أموت من الجوع . . قبل أن أنتهى منه .

ـ وأنا أيضاً أفضل أن أموت وأشبع موتاً . . قبل أن أقدم على قراءته .

ـ اسمع . . عندى فكره .

ـ ماهى ؟

ـ لا ضرورة لأن تطلع على كل هذا .

ـ إذاً كيف أنتق ؟ .

ـ أولا . . اقصر اطلاعك على فترة شهر أو أسبوع .

ـ ماذا تعنى ؟ .

ـ أعنى أن العجز الكائن لدينا فى الأرواح المطلوب حشرها فى المخلوقات الجديدة . . أعتقد أنه عجز مؤقت . . أى أننا لن نحتاج إليك للمساهمة فى سد هذا العجز إلا فى خلال شهر على الأكثر . . مفهوم ؟ ! .

ـ مفهوم . . وبعدها تنفك الأزمة ؟ .

ـ أجل . . هذا محتمل جداً .
ـ وعلى ذلك فسيسقط عرضك بعد هذه الفترة ؟ .
ـ أعتقد .
ـ إذاً ليس أمامى إلا أن أنتق فقط من المواليد التى ستهبط إلى الأرض عما قريب .
ـ هذا هو ما أقصد .
ـ أرنى إذاً .
ـ إليك هذا السجل الذى جهة اليمين . إنه سجل مواليد يوليو الحالى .
ـ كل هذا ؟ .
ـ أجل .
ـ لا . . يفتح الله .
ـ اسمع . . هل تثق فى ؟
ـ أتريد الصراحة ؟
ـ طبعاً .
ـ هذه الثقة . . مسألة مشكوك فيها .
ـ ولِمَ ؟!
ـ طريقتك فى الصـــعود بنا وطريقتك فى قبض أرواحنا طريقة بهلوانية تجعل الثقة فيك أمراً متعذراً .

ـ هذه مقادير لا بد أن أنفذها . . وليس لى بها شأن ثم ليس هناك موجب فى أن تتشكك فى لمجرد أنى أنوع أساليبى .

ـ ولكن هبنى أثق بك . . فماذا تريد ؟

ـ دع الأمر لى .

ـ لك أنت ؟ .

ـ أجل . . أدبره كيف أشاء .

ـ طبعاً أنت الذى ستدبره . . وهل تظننى أعرف كيف أدبره ؟ .

ـ أقصد أن تترك لى مهمة اختيار الحياة المناسبة لك .

ـ لا . . لا . . هذه ليست مسألة من السهل التسليم بها . أتعرف معنى هذا ؟ .

ـ معنى هذا ؟ .

ـ معناه أنك تستطيع أن تزج بروحى فى مولود أو فى جسد أو فى مخلوق جديد . . ليس هناك شبه أو انسجام بينى وبينه . . وأعرف بعد ذلك أية حياة تعسة يمكن أن أحياها . . أنا أعرف فى حياتى السابقة مخلوقات من هذا النوع كانت حياتهم لا تطاق .

ـ كيف ؟

ـ مثلا أعرف رجلا قبح الله خلقه ، دميم الوجه ، هزيل الجسد ، يأبى إلا الزج بنفسه في ميادين الغرام وساحات العشق ، وكان يزعم لنفسه القدرة على إيقاع ربات الجمال .. وكان لا يكل عن محاولة تصيد إعجابهن . . ويروح بعد محاولاته الدائبة في خيبة دائمة وإخفاق مستمر . . هذا الرجل لا شك ذو روح مرهفة عاشقة . . هى بروح دون جوان أشبه . . قد حشرت فى جسد خطأ . . جسد كان لا يصلح إلا لروح مجذوب من مجاذيب الحسين والسيدة .

ـ مسكين .

ـ ومثل آخر . . فتى كان زميلا لنا فى المدرسة . . أعجف هزيلا .. لا تكاد تحمله رجلاه على ضعفه وهزاله .. أتصور ماذا كانت أمنيته فى الدنيا ورغبته فى الحياة ؟

ـ لست أدرى !

ـ خمن ! .

ـ قل ولا تضع وقتنا فى التخمين .

ـ كانت أمنيته أن يكون رباعاً .. أى والله .. كان يريد أن يخلف السيد نصير . . وكان يضيع ثلاثة أرباع وقته فى التمرين بالساندوز . . والتدريب على الأراشيه والپرس والكلين ونطر .



– على أية حال . . كل روح دائمة التطلع والتمنى إلى ما قد يعجز عنه الجسد .

– لا . . لا . . أنا لا أقصد هذا . . أنا أقصد الخلاف التام بين الروح والجسد . . لأن العكس أيضاً صحيح .

– كيف ؟ .

– قد تكون الروح هى الأقل قدرة .

– لست أفهم .

– سأضرب لك مثلا . . عكس صاحبنا الهزيل الذى كان يريد أن يصبح رباعاً . . زميل آخر كان له « جثة » هرقل . . كان ضخماً قوياً يستطيع أن يفرّق « زفه » بأكملها . . ومع ذلك فقد وجدناه فى إحدى المعارك فى مكان لا يخطر على بال كثير . . فأين وجدناه فيما تظن ؟

– وكيف أعرف ؟

– وجدناه مختبئاً تحت أحد المناضد .

– كان جباناً ؟ ! .

– لا . . لا . . لم يكن جباناً . . كل ما فى الأمر

أنه لم يكن هناك انسجام بين روحه وجسده . . وهذا هو الذى أبدى عمله مستغرباً ، وهذا هو الذى جعله ملوماً مذموماً بين الناس . فلو أن روحه وضعت فى جسد هزيل ضعيف ما لامه أحد وما شق فى حياته وأصبح موضع هزؤ وسخرية . . ومثلا آخر صديق لنا مهيب المنظر ، فاخر الشكل ، له سمات الحكام وذوى السلطان وأهل الجاه والعلم .

— وأى عيب فى ذلك ؟

— العيب فى هذا أن روحه لم تكن لها هيبة ولا فخامة .

— كيف ؟ .

— كانت روح مهرجة مهذار . . وكانت تأبى إلا أن تجعل الجسد المهيب الفاخر موضع ضحك وسخرية . . ومثل آخر . .

— لا . . وأرجوك . . فكفى أمثلة . . ليس لدينا وقت لسماع المزيد من الأمثلة .

— هل فهمت إذاً ؟

— تماماً . . أنت تريد جسداً يلائم طبيعة روحك .

— ليس ملائماً فقط .

— ماذا أيضاً ؟ .

— ملائماً وقديراً .

— قديراً ؟ .

— أجل . . له القدرة على تنفيذ كل رغباتها وأمنياتها .

— هذه مسألة عويصة جداً .

— هذا هو شرطي للنزول . . فأنا كما تعلم زاهد فيه . . ولست على استعداد قط لأن أعاود مرة ثانية المغامرة فى حياة متعبة شاقة .

— إذن فأنت تريد جسداً ملائماً لروحك وقديراً على رغباتها ؟

— بالضبط .

— هذا يحتم علىّ قبل أن أبدأ البحث أن أعرف بالضبط ماهية روحك وماهية رغباتها وأمانيها .

— طبعاً .

— إذاً فصف لى روحك !

— هذه فى الواقع مهمة صعبة .

— وما صعوبتها ؟

— فى وصف الروح يترجح الإنسان بين الغرور والتواضع .. أخشى أن يرفعها الغرور أو يخفضها التواضع .

— صفها كما هى . . كأنك تصف روح غيرك .

ـ حسناً . . سأحاول .

ـ هيا . . تكلم .

ـ أول صفة فيها الإرهاف والشاعرية والولع بالجمال.

ـ هذه مسألة هينة . . لن نعدم فى هذا الشهر مولد شاعر أضعك فى جسده .

ـ شاعر ؟

ـ أجل !

ـ وهل يكون جسد هذا الشاعر.. قوياً متيناً يستطيع لعب « الاسكواش » والسباحة والحصول على بطولات الرياضة التى أتوق إليها ؟

ـ ماذا ؟! ماذا ؟! شاعر يلعب «الاسكواش» ويحصل على بطولات رياضية ؟! بالطبع لا .

ـ إذاً لا يصلح . . أنا أذكر بعض الشعراء المعاصرين فى حياتى . . أبغضت الشعر من أجلهم عندما رأيتهم . . لقد كانوا منبوشى الشعر . . لا ترى بينهم إلا أعجف هزيلا أو أكرش بديناً .

ـ دعك إذاً من الشعراء . . أستطيع أن أحشرك فى جسد بطل « للجمباز » والقفز والوثب . . سيولد غداً . . فما رأيك فيه ؟

— بطل « جمباز » . . قوى الجسد ؟

— جداً .

— ووجهه ؟

— ماذا تريد من وجهه ؟

— هل وجهه جذّاب ؟

— جذّاب .

— هل يوقع النساء بسهولة ؟

— والله لا أظن .

— ولكنى ولوع بهن ، وأريد أن أكون قديراً على إيقاع أكبر عدد منهن .

— فى هذه الحال . . أنسب جسد لك هو جسد ممثل فتى أول . . سيولد بعد باكر . . أعتقد أنه سيكون وسيما جداً . . وسيوقع فى حبائله ثلاثة أرباع مشاهدات الشاشة من المراهقات . . ما رأيك ؟

— لا بأس . . ولكن . . . .

— لكن ماذا ؟

— شخصيته .

— على الشاشة ؟ . . اطمئن . . يقوم بأدوار الشهامة والقوة . . وكل ما تريد من الصفات المحبوبة .

ـ لست أقصد على الشاشة .

ـ ماذا تقصد إذاً ؟

ـ شخصيته الحقيقية . . شخصيته التي يحيا بها .

ـ ومالك وشخصيته الحقيقية . . الممثل . . لا قيمة له إلا على الشاشة .

ـ ولكن شخصيته التي يعيش بها . . هل هو ذكي ألمعي لوذعي عبقري ؟!

ـ إيه !! إيه !! ألمعي ولوذعي !! طبعاً لا . . في الحياة لن يكون ألمعي ولا لوذعي . . بل ابن آدم عادي . . تافه كغيره من التافهين .

ـ تافه !! لا . . لا . . أنا لا أريد أن أكون إنساناً تافهاً أريد أن أكون ذا شخصية وذا قيمة .

ـ عالم مثلا . . أو كاتب ؟

ـ شيء من هذا القبيل .

ـ اسمع . . سيولد بعد غد . . جراح . . وسيكون له كما يقولون « شنّه ورنّه » ، فما رأيك فيه ؟

ـ أيكون شهيراً ؟

ـ جداً .

ـ ومظهره ؟

ـــ لا بأس به .

ـــ وشخصيته ؟

ـــ ممتازة .

ـــ ومركزه بين النساء ؟

ـــ محبوب جداً .

ـــ هذا لقطة .

ـــ وشيء آخر يميزه أيضاً .

ـــ ماذا ؟

ـــ سيكون بطلا من أبطال الرياضة وهو فى كليته .

ـــ مدهش .

ـــ وله ذوق حساس ونفس مرهفة .. وسيقرض بضعة قصائد من الشعر .

ـــ عجيب ! . هذا هو المطلوب .. بالضبط .. لِمَ لم تحدثنى عنه من قبل ؟

ـــ إذا كان يعجبك فعليك به .. إنه خال ينتظر الروح التى ستزج به إلى الحياة .

ـــ انتهينا .. لقد اخترته .

ـــ حسن .. اتفقنا ؟

ـــ اتفقنا !

— ثمة شيء آخر .. أريد أن أطلعك عليه حتى تكون على بينة من كل شيء .

— ماذا أيضاً ؟

— عندما يبلغ الثلاثين .

— سيرشح للوزارة ؟

— لا .. سيصاب بالسل .

— ماذا تقول ؟

— ويعيش بقية حياته مصدوراً .

— أيها الماكر الخبيث .. أهذه حياة تختارها لى ! ؟

— ألم تعجبك البداية ؟

— والنهاية ؟ أية سعادة فى إصابة بالسل فى عز شبابى .. لا .. لا .. يفتح الله .. بينى وبينك ربنا .

— اسمع .. لا فائدة من أن أختار لك أنا .

— ما العمل إذاً ؟

— لدىّ « فهرس » مختصر .. تستطيع أن تلقى عليه نظرة فى بضع دقائق واختر بنفسك من تشاء .

— أيوجد به توضيحات ؟

— أجل .. معلومات ملخصة مختصرة .. ها هو ذا .. لا يزيد على بضع صفحات .

ــ هذا معقول .. شيء ممكن قراءته .. بدل هذا التل من الأوراق .

ــ ألق عليه نظرة .. علك تجد مخلوقاً يعجبك نحل فيه .

ــ أرنى .. المخلوق الأول ، عبد المجيد جاد الرب ، سباك بدرب العنبة ابن الأسطى جاد الرب وسيده العمشاء يتعلم الصنعة مع أبيه ويظل سباكا فى درب العنبة حتى نهاية حياته .. يتزوج فهيمة الفرارجية وينجب سبعة عشر ولداً . ماشاء الله . . حياة رغدة جداً . . ما هذا ياسيدنا ؟! أتلك هى الحياة التى تريدنى أن أهبط مرة أخرى لأحياها . . سباك وعمشاء وفرارجية وسبعة عشر ولداً ! خذ ! خذ ، ولا تضيع وقتنا .

ــ ياأخى صبرك .. دعك من هذا .. خذ الذى بعده .

ــ إذا كان كل مواليدك من هذا النوع ، فلست أجد أملا فى الاطلاع على بقية الكشف .

ــ ياسيدنا .. صبرك لا تكن عجولا .. نحن لدينا مواليد من جميع الأصناف والطبقات . فأرجو أن تقرأ .

ــ المخلوق الثانى . . زكية فلمنك .

ــ زكيه إيه ؟

ــ فلمنك . . هكذا مكتوبة .

— أجل .. أجل .. تذكرت .. هذا سيصبح اسمها بعد حين .

— زكيه فلمنك .. راقصة عالمية .. تولد فى شق الثعبان .. تقضي طفولتها فى لم « السبارس » ، وصباها فى غسل الصحون ، وشبابها فى هز الصدر والأرداف .. يلمع نجمها فى سماء الفن . تموت فى هوليود بين أروقة استوديوهات م . ج . م . ماهذا الخلط والهذر ؟ تولد فى شق الثعبان وتموت فى هوليود ؟

— قضاء الله .

— على أية حال هذه مسألة لادخل لى بها .. لتمت أينما شاءت .. فهى لا تدخل فى دائرة الاختصاص .

— كيف ؟

— لاأستطيع بالطبع أن أهبط فى جسدها .

— ولِمَ ؟

— لِمَ ؟! هل تريدنى أن أهبط إلى جسد امرأة !!

— وماذا يضيرك ؟

— وراقصة ؟!

— وأى عيب فى ذلك ؟

— وأمسك الصاجات .. وارقص على واحدة ونصف ؟

— واحده ونصف .. اثنين .. ثلاثة .. باليه . رومبا

هذه مسألة تخصك وحدك ولك مطلق الحرية فيها .

– اسمع .. أتهزل ؟

– بل أتكلم جاداً .

– لو كنت مكانى .. أكنت تهبط فى جسد راقصة ؟! أتقبل بعد حياة الرجولة التى حييتها .. أن تصبح امرأة .. وأى امرأة ؟!

– ولِمَ لا .. حياة جديدة ليس لك بها عهد .. ألا يحتمل أن تكون أسعد من حياة الرجولة التى حييتها ؟

– يحتمل .. ولكن على أية حال .. لا أريدها .. لست أجد فى نفسى أى كفاءة للمهنة الجديدة ولا للحياة الجديدة .

– أنت وشأنك .. خذ التى بعدها .

– لنر التى بعدها .. « عباس الهميمى » رئيس عصابة قطاع طرق فى قنا .. يقتل خمسة وأربعين رجلا ويتزوج خمس وعشرين امرأة ويموت مشنوقاً .. ماهذا ياأخانا !! أهذه حياة !! أأنا أصلح لقتل خمسة وأربعين رجلا ؟!

– لاحظ أنه تزوج أيضاً خمساً وعشرين امرأة ؟

– والله هذه مسألة تستدعى التفكير .

– غير الصداقة .

ـ أهناك أيضاً صداقة ؟

ـ طبعاً . .

ـ حياة ممتعة ولا شك . . مليئة بالنساء . . ولكن أتراهن جميلات ؟

ـ لاشك بهن شيء جميل . . على الأقل نصفهن .

ـ والله مسألة فيها نظر . . مارأيك أنت ؟

ـ أقبل ولا تتردد .

ـ ولكن الشنق ؟

ـ كلها موته .

ـ والعذاب فى الآخرة ؟

ـ كله عذاب . . مامن حياة إلا ولها ذنوبها .

ـ لكن القتل . . فظيع . . لا أستطيع . . لن أجسر عليه . . ستكون مشكلة عويصة . . بين روحى المسالمة ، وجسده المعتدى الهاجم . لا . . لا . . لا أظننى أصلح لهذه الحياة .

ـ أنت متردد . . اقرأ الذى بعده .

ـ « سناء سامح » الشهير بسونة . . رجل أم امرأة ؟

ـ أظنه رجلا . . اقرأ وأنت تعرف .

ـ الشهير بسونة . . ابن الوجيه سامح باشا والنبيلة

راجية . . هذا مولود « ارستقراطى » ابن عز .

ــ أكمل . . أكمل .

ــ يولد فى قصر المنيل . . وفى فمه ملعقة من ذهب طبعاً !

ــ أكمل يا أخى . . وأرجىء تعليقاتك حتى النهاية .

ــ ولِمَ أكمل ؟! هذا إنسان مولود فى قصر . . ماذا أبغى أكثر من هذا . . أنا نفسى ولدت فى حياتى السابقة فى حارة الروم . . فى الدرب الأحمر .

ــ إذن يعجبك هذا المولود ؟! اتفقنا ؟!

ــ على ماذا ؟! انتظر .

ــ يا أخى أكمل ودعنا ننتهى .

ــ يولد فى قصر المنيل . . يقضى طفولته بين الدمقس والحرير والذهب . . ويقضى حياته مدللا بين أقصى مظاهر العز والرفاهية . . مدهش . . هذا مولود مثالى .

ــ اقرأ . . اقرأ .

ــ وفى شبابه يموت أبوه ويرث كل ثروته . . ألف فدان وأربعة قصور . . يا سلام . . أظن ليس بعد هذا حياة ؟!

ــ أكمل . . قل لنا كيف يموت ؟

ــ كيف يموت ؟! يرث ألف فدان وأربعة قصور . . ويموت ؟! يموت . . ما هذا ؟ لابد أن يكون قد حدث

خطأ . . لا شك أن هذه الموتة قصد بها مولود آخر . . أجل . . أجل . . لابد أن يكون حدث خطأ كتابي .

— ليس هناك خطأ . . قل . . كيف يموت ! ؟

— يموت معدماً من درب طياب . لا . لا . هذا ليس معقولا بالمرة . . هذه موتة قد تصلح لصاحبك عباس الهميمي رئيس العصابة . . أو عبد المجيد جاد السباك ، ولكن لسونه وريث الألف فدان . . غير معقول أبداً .

— اسمع .. لا تكن ثرثاراً . . إن مهمتك أن تختار فقط . . لا أن تعترض أو تعدل ؟

— ولكن هذا شيء لا يقبله عقل .

— لِمَ ؟

— كيف يموت معدماً . . وهو وريث ألف فدان ؟

— أهذا شيء عجيب !

— بالطبع .

— فقدها .

— فقدها ؟ ! . . كيف ؟ ! أهي بضعة قروش يفقدها بمثل هذه السهولة ؟

— ألا تعرف كيف يفقد إنسان ألف فدان ؟

ـ أنا شخصياً لو أعطيتنى ألف فدان فلن أعرف كيف أفقدها .

ـ فقدها . . بالقمار . . أعلمت ؟ . . أما زلت مصراً على أن ألف فدان . . شيء يصعب فقده ؟ !

ـ آه . . بالقمار . . إذن فهو مقامر ؟

ـ أجل مقامر .

ـ علمنا هذا . . ولكن ماذا سيذهب به إلى درب طياب ؟ وكيف سيموت ؟

ـ سيذهب إلى غرزة حشيش . . وسيموت عقب شدّه نَفَساً حامياً يكتم أنفاسه .

ـ إذن فهو حشاش ؟

ـ أجل حشاش . . وأية غرابة فى ذلك ! !

ـ أية غرابة ؟ ! أمعقول أن يكون ربيب العز « الارستقراطى » حشاشاً ؟

ـ بل غير المعقول ألا يكون كذلك . . إن الحشاشين قد أضحوا أهل العز و « الاستقراطية » .

ـ على أية حال . . دعنا منه .. أنا لست على استعداد لأن أكون مقامراً ، وأن أبدد من الفدادين ألفاً جمعها

سامح باشا المسكين . . ولست على استعداد أيضاً لأن أختم حياتى فى غرزة بدرب طياب .

ــ أنت وشأنك . . اقرأ الذى بعده . . أنت متعب جداً . . لا يعجبك العجب . . ولا الصيام فى رجب .

ــ اسمع . . إذا كانت كل مواليدك بهذه الكيفية وهذا الحال ، فلا داعى لإضاعة وقتنا . . إن حياتى السابقة التى لم أرض عنها كانت بلا شك أفضل من هذه الحيوات التعسة .

ــ ألم أقل لك أيها الكافر . . الناكر للمعروف .

ــ ومع ذلك فلم تعجبنى . . لقد كنت أكثر إحساساً بالشقاء . . وليس أدرى بهذا منى . . هل تظننى أدعى أو أفترى . . أؤكد لك أنى فى أسعد لحظات حياتى كنت أفضل الخروج منها . . يا أخى لا أريد الحياة . . أهى مسألة قوة ؟

ــ لا تغضب . . المسألة ليس فيها قوة ما . . اقرأ . . اقرأ . . فقد تجد مايعجبك . . لاداعى لهذا التعجل . . هات ما بعده .

ــ نفوسه عبد القادر .

ــ دعك منها .

ـ شلبية سلامة .

ـ دعك منها أيضاً .

ـ بهانه عبد الرحمن .

ـ دعك من الحريم . . هات ما بعدها .

ـ ألا نقرأ ما كتب أمامهن ؟ .

ـ ولِمَ ؟ ! ألم تقل إنك لا تقبل أن تكون امرأة . . بعد طول رجولة ؟ !

ـ أجل . . ولكن من باب التسلية والعلم بالشيء .

ـ لا . . لا . . ليس لدينا وقت للتسلية ولا للعلم بالشيء . . اقرأ ما بعده .

ـ عبد الحليم أبو راية . . هذا لابد أن يكون شيَّالا . . أو صاحب مصنع حلاوة طحينية .

ـ يا أخي اقرأ . أرجوك . . وكفى تعليقاً .

ـ عبد الحليم أبو رايه . . . ما هذا ؟ . غير معقول !! لا يمكن !!

ـ ما هذا غير المعقول ؟ !

ـ عبد الحليم أبو راية . . زعيم . . أتصدق ؟

ـ زعيم ؟ .

ـ أي والله . . زعيم . . مرة واحدة . . هذه لقطة .

ـ أمتأكد أنت ؟.

ـ خذ اقرأ .

ـ عبد الحليم أبو رابيه .. زعيم .. عجيبة !! هذه نادرة .. لا تكاد تحدث إلا كل قرن .

ـ انتهينا .

ـ على ماذا ؟!.

ـ على أن أكون عبد الحليم أبو رابيه .

ـ ولكن ..

ـ ليس هناك لكن .. لقد تركت أنت لى حرية الاختيار .

ـ ولكن هذا لايدخل فى دائرة الاختيار .. إنه شىء نادر .. لقد تركت لك حرية الاختيار بين الأحجار .. أما هذه الجوهرة فدعها جانباً .. إنها بالطبع لا يمكن أن تكون موضع اختيار .. اقرأ ما بعده .

ـ لن أقرأ شيئاً .

ـ لم ؟

ـ إما هذا .. وإما لا .

ـ أفتحنث فى وعدك ؟ .

ـ أنت البادىء بالحنث .. لقد قلت لى اختر من تشاء

فلما وقعت على المخلوق الملائم .. عدت ، تتدلل ، وتقول إنه خارج الدائرة .

ــ لم أقصد التدلل .. ولكن ليس من السهل تسليم هذا المخلوق لأية روح . إنه مخلوق ممتاز يحتاج إلى روح ممتازة قديرة على تمكينه من تأدية رسالته .

ــ أو تظن أن روحي تعجز عن تأدية الرسالة ؟

ــ أظن .. بل أجزم أنها ستعجز .. ماذا تظن المسألة .. إنها زعامة !! زعامة !! هل تعرف معنى الزعامة ؟

ــ رأيتها فى حياتى وقرأت عنها .

ــ ما رأيك فيها ؟ .

ــ والله تتوقف على نوع الزعيم .. ونوع البلد .

ــ فى بلدكم أنتم ؟ كيف رأيتها !!

ــ رأيتها .. شيئاً مستطاعاً .. ليس عسيراً بالغ العسر تحتاج إلى نوع من المحافظة على التوازن عندما يحمل الإنسان على الأكتاف !

ــ أكتاف ؟ أيها الأبله .. هل تظن الزعامة بجرد حمل على الأكتاف ؟

ــ وقدرة على رفع الأكف إلى الرأس لرد التحيات .

ــ ما هذا البله ؟ .

ــ بله ؟ ! أليس مفروضاً على الزعيم أن يحمل على الأكتاف ويرد تحيات الناس ! !

ــ هذه ليست أعماله الأساسية إنها مجرد نتائج لما سيقوم به من جلائل الأعمال . . فيجب قبل أن يكون قديراً على حفظ توازنه على الأكتاف أن يكون قديراً على تأدية الأعمال التي ستجعله يرفع على الأكتاف .

ــ والأعمال الجليلة هذه . . مسألتها عسيرة أم هي بالنيّات ؟

ــ نيّات ؟

ــ أجل . . ألا تعرف أن الأعمال بالنيات ؟ .

ــ أهكذا كانت عندكم أعمال الزعامة ؟

ــ أعتقد هذا .

ــ اسمع يا هذا . . الظاهر أنه ليس لديك أية فكرة عن الزعامة . . ولهذا طلبت الهبوط إلى جسد المولود النادر الثمين . . لا . . لا . . إن المسألة ليست بمثل هذه السهولة . . إن الزعيم صانع معجزات ومظهر خوارق ، ولست أظنك واجداً في نفسك الكفاية لذلك .

ــ ظن ماتشاء .. لقد اخترت وانتهى الأمر .. إما أن أكون زعيما وإما أن تتركنى أصعد .

ــ إلى جهنم ؟ .

ــ جهنم .. جهنم .

ــ جهنم خالداً فيها أبداً !

ــ أبداً .. أبداً .. لايهمنى .. أهى حرقة .. أم حرقتان !

ــ الظاهر أنك عنيد جداً !! .

ــ لن أقبل العودة إلى الأرض إلا زعيما .

ــ يا أخى لقد قال مثلكم « شيل على قدك » .. والزعامة ليست « قدك » يا أخى .. أمامك مئات الأرواح غيرها .. إسمع نصيحتى .

ــ لقد قلت كلمتى وانتهى الأمر .

ــ إذاً فأنت تصر على أن تحل فى جسد الزعيم ؟!

ــ أجل .

ــ وتصبح وحدك مسئولا عن حياتك الضخمة وأعمالك الجليلة ؟

ــ طبعاً سأكون مسئولا عن كل ما بها .

ــ ولن تنوء بحملها .. أو تكل من أعبائها ؟

ــ ما تظننى ؟ أمستضعفاً .. أم صعلوكا ؟! طالما شعرت

فى حياتى السابقة أننى جدير أن أكون زعيما .

ــ هكذا ! ! .

ــ أجل هكذا .. سترى ما سأفعل فى حياتى الجديدة .. سأريك الزعامة على أصولها .

ــ والله أخشى أن تخذلنى وتضيع هيبة الزعامة .. وتخلط فى أعمالها ، لاحظ أن حياتك ستكون جهاداً ومشقة .

ــ أنا أحب الجهاد والمشقة .. إنى أستعذبهما .. ما داما ينتجان أعمالا جليلة وينتهيان بنهاية حافلة مشرفة .

ــ على أية حال لقد وعدت أن أعطيك الحياة التى تختارها .. وليس أمامى إلا الوفاء بوعدى .. سأمنحك الفرصة .. فمن يدرى ! ! ولكن على شرط .

ــ أى شرط ؟ .

ــ ألا تركب رأسك وتستبد بجنانك .. وتتبع هواك فتركب شططاً لا قِبل لنا على دفعه .

ــ ماذا تريدنى إذاً ؟ .

ــ استعن بى .. واسمع مشورتى .

ــ كيف ؟

ــ سأكون بجوارك دائماً .. اسألنى فى كل مايستعصى عليك .. وسأرشدك عن كل ما تريد .. سأريك ما يجب

أن تفعله وما يجب أن تنتهى عنه . . مفهوم ؟

– ستكون لى إذاً بمثابة المرشد ؟

– أجل .. فإنى أعتبر نفسى مسئولا عن هذه المغامرة ومسئولا عن حياة الزعيم النادرة التى سأسلمها إليك .

– اتفقنا . . هيا بنا .

الفصل الثانى

(المنظر : في السماء على مقربة من مسكن محمد افندى أبو رابيه موظف في الدرجة السادسة بحسابات وزارة الأوقاف وهو شقة متواضعة فى شارع التاول المتفرع من شارع السد البرانى بالسيدة زينب .. من النافذة تبدو غرفة نوم رقدت فيها الست زنوبه زوجته وهي تعانى آلام الوضع . . وبجوارها عيوشه الداية وبعض الأقارب .. الوقت فجر .. الجو صيف .. عزرائيل وأنا نحلق معاً فى الخارج)





عزرائيل يبدأ الحديث :

ـ هيا انزل .

ـ . . . . .

ـ قلت لك انزل . . ألا تسمع ؟

ـ مالك مستعجلا هكذا . . أطارت الدنيا ؟ . ما زال أمامنا سبعون سنة فى سجنها . . دعنا نتنسم عبير الحرية لحظة . . دعنا نشم الهواء .

ـ ليس لدينا وقت . . شم الهواء بعد . . سيكون لديك سبعون سنة تشم فيها الهواء كما تشاء .

ـ أهكذا ضقت ذرعاً بصحبتى ؟

ـ لم أضق بك ذرعاً ، ولكن الموعد قد أزف .

ـ أى موعد ؟

ـ موعد ميلادك . موعد ظهورك فى الحياة . موعد بزوغ نجم جديد . . مولد الزعيم .

ـ دعه يتأخر لحظة .

ـ كيف ؟ لا يمكن . . إن مواعيدنا تتم بالثانيـة . . مواعيد محددة مضبوطة .

ـ ومتى موعدى ؟

– منتصف الساعة الخامسة تتلوها أربع دقائق وخمس وعشرون ثانية فى الفجر .

– هذا موعد سخيف جداً .

– ولِمَ ؟

– المفروض أن أكون فيه مستمتعاً بأحلى نومة ، لست أكره شيئاً كيقظة الفجر .

– لا بأس ، تحملها اليوم . . ونم بعد ذلك كما تشاء . هيا انزل .

– إلى أين ؟

– إلى جسدك .

– أين هو ؟ !

– أسفلك مباشرة .

– وكيف أهبط إليه ؟

– قفزاً من هذه النافذة المضيئة . . أتراها ؟

– أنا أقفز من نافذة ؟ ! حاشا لله . . بعد هذا العمر الطويل من حياة محترمة ، والخروج من الدنيا وقوراً مهيباً أهبط إليها من نافذة ، ماذا يقولون عنى ؟ لص أم عاشق ؟

– يا أخى لا تكن سخيفاً . . لن يقول عليك أحد شيئاً من هذا . . لأنه لن يراك أحد . . اهبط بسرعة كما

يهبط القفاز فى حوض السباحة ، ألم تر ديفنج فى حياتك ؟

ــ رأيته .

ــ افعل مثله .

ــ لا أستطيع .

ــ ولِمَ ؟

ــ أخشى أن ترتطم رأسى فى حافة النافذة ويسيح دمى .

ــ اهبط أيها الغبى . . ليس لك حتى الآن رأس ولا عندك دم . . إهبط فقد أزف الوقت .

ــ اقترب منى حتى ترينى النافذة . . أخشى أن أخطئها . . وأهبط إلى نافذة أخرى . . تكون بها امرأة نائمة فتظن بى سوءاً .

ــ أيها الخبيث . . أنا أعرفك . . إن هذا أمنية لك . . ولكن اطمئن إنك لن تخطىء . . إنها النافذة الوحيدة المضيئة فى الحى كله . . ومع ذلك فسأهبط معك . . هيا .

ــ ما هذا ؟! انتظر .

ــ أنتظر . . ماذا ؟

ــ لابد أننا أخطأنا المكان .

ــ لِمَ ؟

ــ أنا أعرف هذا المكان من قبل . . إنى أستطيع تمييزه تماماً . . أليس هذا هو شارع السد ؟

ـــ أجل !

ـــ وهذا أيضاً هو شارع التلول ؟

ـــ أجل .

ـــ وبعد ذلك تقول لى لم نخطىء ؟

ـــ طبعاً لم نخطىء ، إن هذا هو البيت المقصود .

ـــ بيت الزعامة ؟

ـــ أجل .

ـــ فى شارع التلول ؟

ـــ وماذا فى ذلك ؟

ـــ لا . . لا . . إنك تضحك علىّ .. إنك تغشنى .

ـــ كيف أغشك ؟

ـــ نهبط فى شارع التلول وتقول لى هذا بيت الزعامة ؟ بيت الزعامة يكون غالباً . . فى الدقى ، فى الزمالك ، فى جاردن سيتى .

ـــ يا أخى ربنا يفتحها عليك بعد ، وتقطن كما تشاء ، تحمّل الآن .. مادام قضاء الله أن يكون مولدك هنا .

ـــ فى حياتى السابقة لم أكن زعيما ، بل كنت مجرد كاتب لا هنا ، ولا هناك ، وولدت فى الدرب الأحمر . . فكيف أولد وأنا زعيم فى السيدة ؟ بل فى شارع التلول ؟

ــ المفروض أنك زعيم شعبي ، وهذا شيء ستفاخر به فى المستقبل .

ــ ولكنى أفضل التنازل عن هذا التفاخر .

ــ ألم أقل لك إنك لاتصلح للزعامة ؟ . ألم أقل لك إنها شيء كثير عليك ؟ وأنها جهاد ومشقة ؟

ــ قلت لى إنها جهاد . . ولكن لم تقل لى إنها فقر . . هذه بداية تعسة . . أول القصيدة كفر .

ــ الإحساس بالفقر بعض الجهاد ، لابد أن تحس آلام الشعب الذى ستقوده .

ــ تعنى أننى سأجوع ، وأمرض ، وأمشى حافياً . . لا . . لا . . حد الله بينى وبينك . . عد بى .

ــ إلى أين ؟

ــ إلى فوق .

ــ إلى فوق ؟

ــ أجل إلى فوق ، إلى النار الحامية التى تهددنى بها .

ــ اسمع يا أخانا . . أنا لن أسمح بمثل هذا العبث . . إن الوقت قد أزف ، وليس أمامنا إلا بضع دقائق . . وهى لاتكفى للحصول على روح غيرك ، فأرجوك . كفى إضاعة وقت ، وكفى إحراجاً . . لابد أن تكون رجلا ، وتفى بموعدك ، لقد قلت إنك تريد أن تكون زعيما ، فعرضت

عليك الزعامة . ماذا تريد بعد ذلك ؟

ــ أية زعامة هذه التى تولد فى شارع التاول ، وتقاسى الفقر والمرض !

ــ لن تقاسى شيئاً ، اطمئن .. اهبط معى وكفى مضيعة الوقت . . هيا أرجوك . . إن الست زنوبه تكاد تخمد أنفاسها من فرط الألم والصراخ .

ــ الست زنوبه ؟

ــ أجل .

ــ من تكون الست زنوبه . . هذه ؟

ــ أمك .

ــ أمى أنا ؟! زنوبة ؟

ــ مالها زنوبه . . عيب ؟

ــ زعيم ، وأمه زنوبة ؟

ــ ماذا تريد أن تكون أمه إذاً . . كاريوكا ؟ .

ــ كنت أفضل أن تكون تماضر الخنساء . . أو على الأقل جان دارك .

ــ أرجوك من فضلك . . ليس هذا وقت مزاح . . هذه كلها أشياء منتهية . . لقد كانت وانتهى الأمر . . اسم أمك .. اسم أبيك .. مكان ميلادك .. كل هذه أشياء مقررة

مكتوبة .. لا قِبل لنا بتغييرها .. مفهوم ؟

– عبد الحليم . . أبورابية ابن زنوبة بشارع التلول . . ماذا أيضاً قد تقرر فى مصيرى .. وانتهى أمره ؟!

– كل شىء .

– كل شىء ؟

– أجل كل شىء .

– ماذا تعنى . ؟

– أعنى أن مصيرك كله تقرر .. بوصفك زعيما ، وأن عليك التنفيذ لا التغيير ولا الانتقاد ولا التعديل .

– هكذا ؟

– طبعاً هكذا . . ماذا كنت تظن ؟! أتصنع أنت حياتك بنفسك ، وتقرر مصيرك وأعمالك بيدك !

– طبعاً !

– ماشاء الله !! والله لو تركتك لتقرر مصيرك لغرقت فى شبر ماء . . اسمع وحياة والدك .

– أيهما ؟

– السابق واللاحق . . اسمع لقد قلت لك من قبل . . عليك أن تنفذ حياتك بأمانة . وقلت لك إنها حياة جهاد ، ومشقة . . وأنى سأكون بجوارك أرشدك إلى كل شىء

حتى أطمئن على حسن سيرك وطيب سلوكك . ولقد قبلت أنت عن طيب خاطر . . فماذا حدث حتى تعود — وقد أزف الوقت — إلى التردد والتدلل ؟

— بدايتك التى لا تبشر بخير . . أول القصيدة الملىء بالكفر . . إن أول ما أريتنيه من الزعامة لا يتفق مع ما رسمته لها فى ذهنى من أبهة وفخامة . . لقد داخلنى منك خوف من خديعة وتغرير .

— أنا لا أخدع ولا أغرر .

— إذن فلندع اسم الخداع والتغرير . . أخشى أن يكون بيننا اختلاف فى وجهات النظر ، وفى صفات الزعيم .

— ليكن ما ترى . . ماذا تريد الآن ؟

— أريد أن يكون الاتفاق على نور . . أريد أن أكون على بينة .

— بينة بماذا ؟

— من الحياة التى أوشك أن أزج بنفسى فيها .

— ألم تخترها أنت بنفسك ؟! إنها حياة زعيم . . وكفى .

— لا . لا . دعنا من « كفى » هذه . . أريد التفاصيل .

— أهذا وقت تفاصيل ؟! كل ما أمامنا لا يزيد على بضع

دقائق ، وتريد منى أن أذكر لك تفاصيل حياة زعيم تضيق عنها صفحات كتب التاريخ . . أأنت من بنى آدم ؟

ــ حتى الآن ؟! لا .

ــ كن رجلا طيباً . ابن حلال . هيا بنا . . هيا .

ــ لن أهبط حتى أعرف مصيرى بالتفصيل . . وأعرف حياة الزعيم هذه التى تريد أن تلبسها لى . . والتى لا يبدو بها ـ من بدايتها ـ أية صلة ولا شبه بما أعرفه عن الزعامة والزعماء .

ــ أيها الفظ غليظ القلب . . ألا تسمع الصرخات ؟!

ــ أية صرخات ؟!

ــ صرخات أمك زنوبة .

ــ ومالى أنا بصراخها ؟

ــ اهبط وخلصها من آلام الوضع .

ــ أنا ؟!

ــ أجل . . أنت .

ــ أنا لم أكن بذى دراية فى مسائل الولادة قط . . لابد أن يكون بجوارها داية أو دكتور . . إنى أغرق فى شبر ماء فى مثل هذه المسائل .

ــ لست أطلب منك توليدها .

– كيف أخلصها إذن ؟

– بأن تولد أنت نفسك ، بأن تهبط إلى الجسد المحشور في باطنها فتبعث فيه الحياة . . وتخرجه على ظهر الأرض . . اهبط قلت لك ، وارحم المرأة من آلامها . إنها زنوبة . . أمك .

– أيها المخادع المغرر . . تريد أن تأخذني في غمرة من الشفقة والعطف . . « وتكروتني » في الجسد . . وتأخذني في « دوكه » . . لن أهبط قبل أن أعرف التفاصيل بالضبط .

– أيها الفظ . . القاسي . . إنها أمك . . وبالوالدين إحساناً ! ؟

– ليست أمي . . ولا أعرفها . . حتى الآن . . إن الصفقة بيننا لم تتم بعد .

– لم أر أصلب منك رأساً ولا أشد غباء . . أمامنا دقيقتان فقط . . قل ماذا تريد ؟ ! لعنة الله عليك .

– أريد أن أعرف أشياء كثيرة عن صاحبك الزعيم ابن زنوبة . . المولود في شارع التلول .

– أولا كفى سخرية . . من اسم أمه وشارع مولده . . لقد قلت لك إنه مفروض أن يكون زعيماً شعبياً . . نشأ في صميم الشعب .

– ليكن . . دعنا من مولده . . هذا شيء ممكن احتماله

حدثنى عن تربيته ونشأته . . وطفولته وصباه . . وشبابه ، وأمواله ومتعاته .

— أحدثك عن كل هذا فى دقيقة ونصف ؟! كن عاقلا . . أرجوك . . اهبط الآن وارحم المسكينة التى بح صوتها من الصراخ .

— ليس لى بالمسكينة شأن . . أنا غير مسئول عن آلام كل والدة ، لأننى لم أتسبب فى حملها . . السلام عليكم .

— السلام عليكم ؟ . . إلى أين ؟

— إلى فوق .

— والزعيم ؟

— ليس لى به شأن .

— والاتفاق ؟

— ليس بيننا اتفاق . . أنا حر يا أخى .

— اسمع . . قف . . كلمة واحدة .

— ماذا تريد ؟

— أرجوك . . المسألة ليست بمثل هذه السهولة . . إن بها مسئولية كبيرة .

— أى مسئولية ؟

— مسئولية ولادة الزعيم . . كيف تتركه هكذا فى بطن

أمه ؟ . . دون أن تتقدم ونلتقطه قبل أن يسقط .

ـ ليسقط الزعيم فى بطن أمه .

ـ كيف ؟ . . إنه زعيم . . إنه مخلوق نادر . . لا يمكن تركه ينفق هكذا بسهولة فى مولده .. إن له عمل فى التاريخ . أمة بأسرها تنتظره . . شعب كامل يتلهف عليه . . لو أنه مولود عادى . . لتركناه يسقط . . ولكنه زعيم يجب أن يحيا . . يجب أن يحيا الزعيم .

ـ يحيا .. يحيا .. هذا ليس من شأنى . ابحث له عن روح أخرى . لست على استعداد للمغامرة بروحى مرة أخرى .

ـ ليس معى الآن أرواح سواك . لقد تركتنى أعتمد عليك اعتماداً كلياً . . ثم جئت تخذلنى فى اللحظة الأخيرة بل تخذل أمة بأسرها ؟

ـ مالى أنا وللأمة التى تتحدث عنها ؟ !

ـ إنك تحاول حرمانها الزعيم الذى طالت لهفتها عليه وتاقت لرؤياه .

ـ لا عليك . . دعها وشأنها . . الزعماء بها كثيرون .

ـ كثيرون أيها الأحمق ؟ ! إن هذا زعيم حقاً .

ـ زعيم حقاً . . ماذا تعنى ؟

ـ ماذا أعنى ؟ . . لقد سبق أن قلت ماذا أعنى ؟ . إنى

أعنى أنه زعيم ولد لكى يكون زعيما . . صنعته فى الحياة هكذا . . خلق لإنقاذ هذه الأمة . . إنه ألزم شىء إلى هذا الشعب فى هذا الوقت . . إنه الشىء الذى يفتقده الشعب . . فلا يجده . . هل عرفت ماذا أعنى بالزعيم ؟

— تكلم . . تكلم . . الظاهر أنك تعنى شيئاً آخر يختلف تمام الاختلاف عما طبع فى ذهنى . . قل ماذا تعنى بالزعيم أيضاً ؟ !

— الزعيم الذى لا يريد أن يكون زعيما . . ولا يأبه أبداً أن يقول الناس عنه زعيم . . إنه يؤمن بأن له رسالة يؤديها . . وهدفاً يقصد إليه . . وأغراضاً يسعى لتحقيقها . . وقد أهله الله لتأدية الرسالة . . وهيأه للوصول إلى الهدف . . ولتحقيق الأغراض . . لقد وهب له من المواهب ما يجعله يؤدى رسالته بيسر وإخلاص . . ويشعر فى قرارة نفسه . . ومن طريقة خلقه . . أن ذلك هو عمله يؤديه بلا تكلف وبمهارة وثقة وبلا اعوجاج أو خلط . . كالموسيقى الموهوب أو الشاعر الملهم لا جهد فى عملهما ولا مشقة ولا تكلف . . بل يفعل عمله وهو يشعر أنه لا يستطيع أن يفعل سواه . . أفهمت ؟

— أجل . . كدت أفهم . . إنه الأمنية الضائعة التى يفتقدها هذا الشعب التعس . . إنه الراعى الصالح الذى

يفتقده هذا القطيع الضال . . إنه النجم الهادى الذى يبحث عنه هذا الشعب الشارد فى بيداء التعاسة .

— لقد فهمت تماماً . . إنه القيم الذى يحتاج إليه القصر فى محشر أوغاد . . والوصى الذى ينشده اليتامى فى فيض من السفلة . . إنه قطرة الماء التى تتلهف عليها الأمة اليتيمة الظمأى فى مأدبة اللئام .. إنه الحجر الدافىء اللين الذى تريد أن تسند إليه رأسها بعد طول سهر وإنهاك .

— عرفت يا أخى عرفت . . أنا نفسى كنت أحس بفرط حاجتنا إليه عندما كنت حياً . كنت أحس أن الشعب يريد أن يكون إنساناً . . إنساناً أهلا لحبه . . إنساناً يبادله الحب والوفاء والإخلاص . . إنساناً يلتف حوله ويهتف له . . ويمجده ويرفعه إلى عنان السماء . . ويشعر فى قرارة نفسه . . أن هذا الإنسان أهل لكل هذا ، وأنه يستطيع أن يسلم له قياده ويترك له عنانه ويتبعه أينما سار . . ويفعل كل ما يأمره به . إن الشعوب جبلت على هذا . . على أن تتبع كل هادخلق للهداية وتحب كل زعيم محبوب خلق للحب .

— وهل وجدتم هذا الزعيم الذى أعنيه ؟

— وجدناه ؟ . لو كنا وجدناه . . أفكانت حالنا قد صارت إلى ما هى عليه ؟ إن سبب ما أصابنا ، هو أننا

لم نجده . . هو أن الله لم يمن علينا به ، لقد كنا إذا ما أصابتنا الملمة وراء الملمة ، والمصاب وراء المصاب ، نجلس نفكر فى الحل . . وآخرتها ؟ ما آخرة كل هذا ؟ . ما آخرة هذا الفساد الذى تسرّب فى كل نواحي حياتنا ؟ ! ما آخرة هذا الانحطاط الذى بدا فى كل مظاهرنا وبواطننا ؟ . انحطاط وفساد فى كل فئة وفى كل ناحية . . انحطاط وفساد فى الفرد والمجموع . . فى الكبار والصغار . . فى التعليم والخلق والاقتصاد والسياسة . . لقد انهارت المثل العليا ، وأضحت الأنانية والخسة والوضاعة والنفعية تسيطر على الأذهان والأعمال والتصرفات . . أضحى طابع كل عمل هو الفساد والتراخي والإهمال والفائدة الخاصة ، وكل إنسان يتحدث عن هذا ويعترف بهذا وينغمس فى هذا . . وبعد كل هذا يبحث بالكلام عن دواء للعلة وعلاج للداء . . لا حديث للناس . . إلا كيف ننقذ هذا البلد ؟ ! وأى نوع من أنواع الحكم يصلحها . . الحكم البرلمانى عاجز . . والانتخابات سخرية . . والحرية يساء استغلالها من جانب المحكومين . . والحكم العرفى يساء استغلاله من الحكام . . الشعب ردىء والحكام أردأ . . ما العمل ؟ من يجيرنا من هذا التدهور . . ومن ينقذنا من هذه المرارة ؟ من يجيرنا

هذا التاجر المستغل والبائع السارق وصاحب الأرض النهم الشره ؟! ومن يجير هؤلاء من العامل الكسلان عديم الخلق ؟! من يجير الطالب من المعلم الجاهل ، والمعلم الجاهل من الطالب السافل الذى لا يحترم معلماً ، ولا ناظراً ؟! من ، ومن ، ومن ، ومن ، وأخيراً يتركز الجواب فى كلمة واحدة .. زعيم صالح .. يجير البلد من نفسها ومن أشرارها وتجارها وسفلتها من محكومين وحكام . أجل إن كل حل مآله إلى زعيم يأخذ بيد هذا البلد فيقيله من عثرته ويرفعه من كبوته . . زعيم حق .. زعيم بالفطرة . . وليس زعيما . . بالتوريط .

— زعيما بالتوريط . ماذا تعنى ؟

— أجل . . ورطته الظروف . . مات سلفه فوجد نفسه قد تورط مكانه وورث زعامته . . أغمض عينيه ثم فتحها فإذا هو زعيم .. وإذا الناس من حوله يدعونه زعيما ، ولم يملك هو إلا أن يوافقهم على ذلك .

— وماذا حدث له ؟

— حدث له ما حدثتك عنه سابقاً . . مما يحدث لكل جسد لا يلائم روحه .. ارتباك.. وخلط .. وسخريات .. هو فى ناحية والزعامة فى الناحية الأخرى ، ومع ذلك يأبى الناس إلا أن يربطوا أحدهما بالآخر . . هو رجل عادى

يحب مايحب الرجل العادى ويفعل مايفعله الرجل العادى ، والذى إذا ما فعله بوصفه رجلا عادياً يصير أمراً عادياً لا غبار عليه . . ولكنه عندما يصدر منه ، وهو متورط فى الزعامة يضحى أمراً غريباً مضحكا ، ومخذلا مشيناً . . وهكذا يذهب الزعماء بالتوريط ضحية مورطيهم فى الزعامة ، ويظل الشعب يعدو وراءهم حائراً . . يضحك تارة ، ويجد تارة . . كما يعدو الصبية خلف المجاذيب والمخابيل . . ثم ينتهى به الأمر إلى أن يفقد ثقته بالزعامة وبالمثل العليا . . وبالقيم الطيبة . . ويفقد ثقته بكل شىء ويروح تائهاً ضالا . . خابطاً فى الفساد والانحطاط والسفالة . . وبين آونة وأخرى عندما يحس بفرط الإنهاك والتعب . . يصيح صيحة غريق أوشك على الهلاك : أما من زعيم ؟! أما من منقذ ؟! ثم تذهب صيحاته مع الرياح . . دون سميع ولا مجيب .

— ليحمد الله إذاً !

— علامَ ؟

— لن تطول صيحاته أكثر من ذلك . . لن تطول استغاثته . . فعما قريب يجد السميع المجيب .

— متى ؟! .

ـ عندما تأذن . . عندما تسمح وتهبط فى هذا الجسد الذى ينتظر . . عندما تدفع الحيـــاة فى الزعيم المنتظر . . الزعيم بالفطرة . . لا بالتوريط .

ـ ولـكن من قال لك إنى سأسمح بالهبوط ؟

ـ من قال لى ؟ . . بعد كل تلك المحاضرة . . عن حاجة الشعب إلى منقذ وإلى زعيم . . تأبى الهبوط ؟! .

ـ ومالى أنا والشعب . . لينقذه غيرى !! .

ـ أيها الأنانى ؟ .

ـ لاداعى للشتائم . . إنى لا أحس بدافع قوى لإنقاذه، لقد أخذت دورى فى التعاسة .

ـ يا أخى أرجوك !! كف عن هذا العناد !

ـ مازلت مصراً على رأيى . . اشرح لى تفاصيل حياة الزعيم الجديد . . حياة الزعيم بالفطرة هذه .

ـ ألا يكفيك أن تكون منقذاً لشعب ؟! .

ـ لايهمنى الشعب كثيراً . . أنا أعرفه خيراً منك . . المهم إنقاذ نفسى أولا .

ـ نفسك أولا ؟!

ـ أجل . . ليس لدىّ مانع من إنقاذه ، ولـكن ليس على حساب شقائى وتعاستى . . اشرح لى حيـــاتى أولا

حتى أكون – كما قلت لك – على بينة .

– ولكن .. لقد انتهى الوقت .. لقد أضعنا كل ما تبقى لنا فى محاضرتك عن الزعيم الأصلى والزعيم المتورط .. هيا أرجوك .. اهبط الآن .. ثم نتفاهم بعد ذلك .

– بعد ذلك ؟! ماذا تظننى ؟! أبله .. أم حماراً ؟! لن أهبط إلا بعد أن أقتنع بحياتى القادمة تمام الاقتناع .

– الوقت أزف .. انتهى .

– لا يهمنى .

– ولكن ما العمل ؟! أندع الزعيم هكذا .. معلقاً على باب الحياة ؟!

– هذا ليس من شأنى .

– الزعيم !! الزعيم الذى يحتاج إليه الشعب .. وتتلهف عليه الأمة .. الزعيم الذى تتعلق بحياته الملايين .. نتركه هكذا يموت « فطيس » ؟!

– ولماذا نتركه يموت « فطيس » ؟!

– لأن موعد ولادته حل .

– أجلها .

– أأجلها ؟! كيف ؟

– كما يؤجل كل شىء .

ــ لا .. لا .. إن مواعيدنا تتم بالدقيقة والثانية .. ثم إن هذه ليست ولادة شخص عادى .. إنها ولادة زعيم .. من المستحيل تأخير نزوله .. إن حياته ملك الشعب .

ــ يا سيدى .. نصف ساعة .. أو ساعة .. لن تؤثر كثيراً فى الشعب .

ــ وماذا ستفعل خلال هذه الساعة أو نصف الساعة ؟

ــ تقص علىّ تفاصيل الحياة .. حسناتها وسيئاتها .. تعاستها وسعادتها .. آلامها ولذاتها .

ــ وبعد ذلك ؟ .

ــ أوازن أنا .

ــ وبعد أن توازن ؟

ــ أختار .. الهبوط فى بطن زنوبة ، ويدى عيوشه .. أو الصعود على ظهر السحب بين يدى الله .

ــ وهذه المسكينة التى تكاد تهلك صراخاً ؟

ــ دعها تنام حتى تتفاوض وتتفق .

ــ حسناً .. سأسير معك حتى النهاية .. ماذا تريد أن تعرف ؟!

ــ قل لى أولا .. ماذا سيحدث لى عندما أهبط إلى جسد الوليد ؟!

— ماذا سيحدث لك ؟ ! أهذا سؤال ؟ .

— أجبنى . . إن مهمتك هى الإجابة .

— سيحدث لك ما يحدث لكل وليد .

— أتعنى أننى سأصبح وليداً ؟

— بالطبع .

— وأرضع ؟

— طبعاً . . ماذا تظنك تفعل . . تأكل كباباً ؟ ! .

— أنا أرضع ؟! ألقم ثدى الست زنوبة هكذا عارياً . . بلا خجل ولا حياء ؟ .

— وعلامَ الخجل والحياء ؟ ! إنها أمك .

— وسأصرخ هكذا وأفعل كما يفعل كل الأطفال ؟ .

— طبعاً .

— يا للخجل ويا للمكسوف ! ! .

— أرجوك . .

— وسيهزوننى حتى أنام ؟

— اسمع . . إذا كنت تنوى إضاعة الوقت فى مثل هذه الأسئلة السخيفة فلن أجيب عليك . . قلت لك إنك ستكون وليداً .

— ولكننى أعرف أنى سأكون زعيما !

— ستكون وليداً قبل أن تكون زعيما .

ـ أليس هناك ميزة للوليد الزعيم ؟

ـ لا .. الوليدالزعيم .. يتساوى مع الوليد غيرالزعيم.

ـ لا بأس . . أستطيع أن أحتمل فترة الطفولة الطويلة بأى حال . . ولكن . . .

ـ لكن ماذا ؟

ـ هل سأستطيع التحدث ؟!

ـ كيف تستطيع التحدث . . إن مواهبك وقدرتك ستكون محدودة بالجسد الذى ستحل فيه . . فكيف تتحدث بلسان الوليد . . الذى لا يستطيع إلا الوأوأة ؟

ـ وكيف إذآ سأتفاهم معك .. إذا ما احتجت إليك ، أو أردت إرشادى ؟

ـ معى أنا تستطيع التفاهم كما تشاء . . سأهبط إليك كلما سنحت الفرصة . . فرصة موت أو ولادة . أو فرصة فراغ أقضيها معك .

ـ وكيف أستطيع التفاهم معك ، وأنا ـ على حد قولك ـ لا أعرف سوى الوأوأة ؟! هل تجيد أنت فهم الوأوأة ؟

ـ عندما تتفاهم معى . . ستتفاهم بروحك . . وعندما تتعامل مع البشر ستتعامل فى حدود جسدك وفى حدود

قدرته . . هل علمت ذلك ؟ . . مفهوم ؟

— مفهوم .

— هل لديك ما تود الاستفسار عنه بعد ذلك ؟

— طبعاً لديّ الكثير . . إننا لم نزل بعد فى البداية .

— سل وانته بسرعة .

— عرفنا أن زعامتى ستكون فى ولادتها وطفولتها كبقية خلق الله الذين لا يتمتعون بالزعامة . . وقبلنا هذا . . مادام لابد من قبوله . . ماذا عن الطور الذى يليه . . طور الصبا والتلمذة ؟

— ماذا تريد أن تعرف عنه ؟

— أريد أن أعرف بعض التفاصيل عن حياتى فى هذا الطور . . وبعض المزايا التى سأتمتع بها . . والخوارق التى تظهر على يدى .

— خوارق ؟

— أجل . . بعض خوارق النجابة ، ومعجزات النبوغ التى سأتمتع بها بوصفى زعيما صغيراً ، والتى ستكشف عن بداية الزعامة .

— اسمع يا أخا . . الظاهر أنك حسن النية بعض الشيء ، ولكن لكيلا تضيع الوقت فى الأخذ والعطاء ،

أقول لك باختصار إنك ستكون فى هذا الطور مخلوقاً طبيعياً جداً ، بلا خوارق ولا معجزات .. ستكون مجرد تلميذ عادى بلا مخائل نبوغ ولا أمارات عبقرية ، مفهوم ؟! تلميذ عادى جداً ، جداً ، أو أقل من العادى .

ـ هكذا !! الظاهر أنك أنت الحسن النية ، زعيم لا يبدى فى التلمذة أى ضرب من ضروب النجابة والنبوغ ، ولا تبدو منه خوارق ولا معجزات ؟ الظاهر أن زعيمك هذا من نوع زعمائنا ، الزعماء بالتوريط .

ـ بل زعيم مطبوع مخلوق للزعامة .

ـ وليس عليه مخائل نبوغ ، ولا نجابة ؟

ـ أجل .

ـ ولا يقفز مثلا ثلاث سنوات دراسية فى سنة واحدة؟

ـ لا . . لا . . ليس له فى القفز أبداً ، هو لا يعرف هذه الأعمال الطرزانية البهلوانية .

ـ ولا يكون مثلا الأول فى كل امتحان يتقدم إليه ؟

ـ أبداً . . مرة يكون الأول ، وعدة مرات يكون فى المنتصف ، وقد يرسب مرة وينجح فى الملحق مرة ، تلميذ عادى جداً .

ـ ما هذا ؟! هذا زعيم هزؤ جداً . الزعماء على الأقل

يكونون دائماً فى دراستهم الأوائل ، ويحكى حكايات عن نبوغهم ونجابتهم فى صغرهم .

ــ على أية حال . . اطمئن .. عندما يصبح زعيما سيحكى عنه ما حكى عن بقية الزعماء ، وسيلصق به الكثير من المفتريات عن وقائع نجابته ، وسيخترع عنه مالم يفكر أن يفعله .

ــ هكذا ؟!

ــ أجل .. أجل .. كل هذه أشياء ستنسب إلى شخصه فيما بعد .

ــ إذاً سأكون برغم زعامتى ، تلميذاً عادياً ، متوسط الذكاء ؟

ــ بل قليله ، أعنى قد تكون غبياً ، لا تحزن ، ولا تيئس . . العبرة بالنهاية .

ــ نهاية ؟ ! نهاية الشؤم ، ما علينا ، لنتجاوز عن هذه الرحلة المخزية ، ماذا بعد ذلك ، ماذا سأفعل بعد هذا ؟ ماذا سأفعل بعد أخذ البكالوريا .

ــ اسمها الآن التوجيهية .

ــ لا بأس .. سمها ماشئت ، ماذا سأفعل؟ أى نوع من المهن سأكون أقائداً عسكرياً أم محامياً مفوهاً وخطيباً سياسياً؟

ــ لا هذا ، ولا ذاك .

ــ ماذا ؟ ! الزعماء عادة يكونون إمامن رجال الجيش وإما من رجال القانون ، ومعظم الزعماء عندنا خاصة كانوا من رجال القانون .

ــ قلت لك لا هذا ولا ذاك .

ــ ربما تقصد أن أكون أديباً من فطاحل الأدباء الذين يقودون الرأى العام بقلمهم ؟

ــ ولا ذاك أيضاً .

ــ حيرتنى حيرك الله ، ماذا يا ترى ؟ تذكرت .. أجل .. أيها الخبيث ، لابد أنى سأكون طبيب أطفال .

ــ ولا هذا .

ــ إذن أين سأذهب بعد البكالوريا ؟

ــ لن تذهب ، لأنك لن تأخذ البكالوريا .

ــ لن آخذ البكالوريا ؟ ماشاء الله . الظاهر أن زعيمك هذا سيكون من زعماء القمصان الزرق .

ــ ومن يكون هؤلاء ؟

ــ جماعات كانت تعسكر فى خربات القاهرة ، وكانت تسكن خياماً كخيام عمال الشوارع أو التنظيم .

ــ لا ، لا ، حاشا لله .. إن زعيمنا رجل عاقل محترم .

– كيف يكون كذلك ، وهو سيسقط فى الامتحان حتى يطرد ؟

– من قال هذا ؟

– ألم تقل إنه لن يحصل على البكالوريا ؟

– أجل قلت ذلك . . ولكنى لم أقل إنه سيسقط حتى يطرد .

– إذاً ما السبب فى عدم أخذه البكالوريا ؟

– وفاة أبيه وعجزه عن دفع المصروفات واضطراره إلى التوظف ببضعة جنيهات كى يعول أمه وخمسة من الإخوة زغب الحواصل .

– ماشاء الله ! ! أما حياة !! اسمع . . قل الحق . . هل سلطك علىّ أحد ؟

– سلطنى عليك أحد ؟ ماذا تعنى ؟

– أعنى أنه ربما كان لى بعض الأعداء . . يريدون النكاية بى وإرجاعى إلى الدنيا وأنهم استغلوك لخديعتى والتغرير بى !

– أية خديعة وأى تغرير ؟ ! أنا مغرر خداع ؟

– العفو . . تعرض علىّ حياة زعيم . . ثم يظهر أنه سيكون كاتباً بلا إتمام التعليم الثانوى . . لينفق على أمه وخمسة من أخواته . . ماشاء الله . . وزعيمك هذا سيكون له وقت

لشواغل الزعامة ، بعد إطعام أمه وتربية زغب الحواصل ؟

— شواغل الزعامة ؟

— أجل ! شواغل الزعامة .. أليس زعيما ؟ ! متى تنوى مخائل الزعامة فى الظهور ؟ متى ينوى صنع المعجزات ؟

— مازال الوقت مبكراً على الزعامة .. إنه فى هذه الفترة سيكون منهمكا فى حياته المضنية ، مشغولا بفقره وتعاسته وحرمانه . . يحاول أن يفعل المعجزة الطبيعية التى يفعلها بقية الشعب ، وهى إطعام خمسة الأطفال وأمهم وإيواؤهم وقضاء حوائجهم ببضعة الجنيهات التى يتناولها أول الشهر .

— وهل تنجح المعجزة ؟

— إلى حد ما ، يمكنه هو وبقية التعسين من البقاء على قيد الحياة ، وفى الوقت نفسه يمتلىء صدره بالمرارة ، وهو يجد نفسه سائراً فى قطيع ضال لا أهداف أمامه ولا قائد له .. يسير مطأطىء الرأس ، ذليل النفس ، مفعماً باليأس والبؤس ، فيفكر كما فكر أفراد القطيع .. ما النهاية ؟ ما الآخرة ؟ وفى سكون الليل كان ينطلق فى تفكيره المليء باليأس والتعاسة والبؤس .. ثم يسكت ، يسكت . وأخيراً يستطيع بعصارة ذهنه وخلاصة روحه وقلبه أن يكتب كتاباً . . يسلمه إلى أحد الناشرين فيقدم على نشره .



ــ فهمت .. قل هذا يا أخي من الأول .. كأن هذا الكتاب إذن بداية الزعامة ؟

ــ بل بداية السجن .

ــ إيه؟ ماذا تقول؟

ــ مالك تصرخ هكذا؟ . . أفزعتني . . أقول لك بداية السجن .

ــ سجن ؟ ! أنا سأسجن ؟ ! لا . . لا . . حد الله بيني وبينك ، قلت لك من أول الأمر لا داعي للأخذ والعطاء . سجن . . قال الله ولا قالك .. بعد تلك الحياة الماضية التي لم أدخل فيها قسم بوليس تريد أن تدخلني السجن وتقول لي إني زعيم . . لا . . لا يا عم . . السلام عليكم .

ــ يا أخي اصبر . . ما هذه الضجة التي أحدثتها . . لقد كدت توقظ أمك .

ــ أمي ؟

ــ أجل ! أمك زنوبه .

ــ قلت لك .. لا داعي لأن تقول إنها أمي ؛ لأني لم أقبل أمومتها بعد وإن قبلت فإن أول شرط سأشترطه

عليها عندما أستطيع النطق هو أن تغير اسمها . . باسم محترم بعض الشيء ، أو على الأقل تكنى عنه بأى شيء آخر ، وليكن مثلا أم عبده .. ألم تقل إن اسمى عبد الحليم ؟

ـ أجل . . عبد الحليم أبو رابيه .

ـ وأبو رابيه هذا أيضاً لا يعجبنى كثيراً . . كيف يهتف لى الناس . . لن يكون هتافهم رناناً موزوناً . . ماذا سيقولون ؟ فليحيا أبو رابيه . . نحن فداؤك يا أبا رابيه . . نموت ويحيا أبو رابيه ، لا ، لا ، هذا اسم لا يصلح للزعامة . على أية حال سأعرف كيف أتصرف فيه .

ـ تتصرف فيه ؟

ـ أجل ! ألن يصبح اسمى . . وأكون حر التصرف فيه ؟

ـ وماذا ستفعل به ؟ !

ـ سأقول إن نسب العائلة الكريمة لا صلة له بهذا الاسم من قريب أو بعيد .

ـ أية عائلة كريمة ؟

ـ ألم تقل لى أنى عند ما أصبح زعيما سيلصق بى الناس أشياء لا تمت لى بصلة ؟

ـ أجل .

ـ وسيكون منها أنى كريم الأصل محسّب منسّب؟

ـ محتمل .

ـ إذاً فسأقول إن أبا رابيه هذا اسم دخيل على العائلة المحسّبة المنسّبة وأطرده شر طردة . . وأسمى نفسى خورشيد أو شريف . . أو نوبار . . أو أى من هذه الأسماء الأصيلة .

ـ ولكن لا يمكنك فعل هذا . . إياك .

ـ ولِمَ ؟

ـ لأنك أولا زعيم شعبي ولابد أن يكون اسمك شعبياً .

ـ وثانياً ؟

ـ لأن اسم أبي رابيه هذا هو الذى سيخلد فى التاريخ سيصبح كنابليون وغاندى ومصطفى كمال .

ـ عبدالحليم ابو رابيه ؟! لا أستطعمه أبداً . . لا عبدالحليم ولا أبو رابيه . . على أية حال . . ليس هذا وقته . . يحلها ربنا فى المستقبل . . ماذا كنا نقول ؟ ! أجل . . كنا نتحدث عن أنك تنوى إدخالى فى السجن .

ـ أنا لا أنوى شيئاً . . وليس لى بك شأن .

ـ من إذن الحمار الذى سيدخلنى السجن ؟

ـ أنت . . أنت وحدك الذى ستزج بنفسك إلى السجن .

ـــ إذا كان الأمر لى وحدى فاطمئن . . أنا رجل مسالم ولن أدخل السجن أبداً .

ـــ ستدخله كعبد الحليم أبو رابيه . . وليس كنفسك أنت .

ـــ والله . . كعبدالحليم أبو رابيه . . أعتقد أنه قد يصلح مسجونا عادياً . . ولكن ليس زعيما مسجونا .

ـــ سيكون سجنك بداية الزعامة .

ـــ ياله من ثمن باهظ . . من أجل الزعامة . . ولكن لا يأس . . إذا لم يكن من السجن بد . . فلا مفر من احتماله ما دام سينتهى بى إلى هذه الزعامة . . كم سنة سأمكث فى السجن ؟

ـــ أربع سنوات .

ـــ أربع إيه ؟

ـــ سنوات .

ـــ أربع سنوات مرة واحدة . . تريدنى أن أقضى فى السجن أربع سنوات ؟

ـــ ماذا كنت تظن إذن ؟

ـــ شهراً . . شهرين . . ثلاثة أشهر . . أربعة أشهر بالكثير جداً . . لا . . لا . . اعفنى وحياة والدك . . دعنى أعود . .

أنا لم أتعوّد هذه المهانة . . لست وجه سجون .

ـ يا أخي كن عاقلا . . ستمر السنوات الأربع كأنها أشهر أربعة . . كل شيء يمر كلمح البصر . . ألم تر حياتك السابقة كغمض العين ؟

ـ أي والله . . مرت وكأنها لم تمر ، وكأني ما زلت ألعب في جوار جنينة ناميش .

ـ ألم أقل لك كله يمر . . حتى أربع سنين في السجن ؟

ـ ولكن كيف سأقضيها ؟ ! كيف سأبدو في لباس السجن والرأس الحليق .

ـ ستبدو كبقية المسجونين .

ـ كيف ؟ ! لا بد أن أظل محتفظاً ببعض الوجاهة التي تميزني عن بقية المسجونين .

ـ وجاهة ؟ ! ومن أين لك هذا ؟

ـ الوجاهة الأصلية التي ستكون عليها خلقتي .

ـ من قال لك إنك ستكون وجيهاً ؟

ـ لن أكون وجيهاً ؟

ـ بالمرة .

ـ لا . . لا . . ليست هذه هي الزعامة المطلوبة . . هذه زعامة فائلة جداً . . لقد كنت أعد نفسي وجيهاً وأنا مجرد

صعلوك فى حياتى السابقة . . فما بالك وأنا زعيم ؟

ـــ ستكون عادياً جداً . . ستكون على نفس القبح الذى عليه بقية شعبك الكريم .

ـــ كنت أفضل أن أكون زعيما وسيما .

ـــ قسمتك .

ـــ ولكن . . .

ـــ ولكن ، ماذا ؟

ـــ كيف يكون حالى مع النساء ؟ أعنى ما مدى نجاحى فى ميادين الغرام ، وأنا لا أملك شيئاً من الوجاهة ؟

ـــ اطمئن .

ـــ كيف ؟ .

ـــ لن تكون لك أية صلة بهذا الميدان .

ـــ ماذا تقصد ؟ .

ـــ أقصد ، أنه لن يكون لك فى النساء .

ـــ يانهارك أسود .

ـــ مالك ؟

ـــ ليس لى فى النساء ؟

ـــ أجل .

ـــ عد بى إلى السماء . . عد . . هيا . . لا داعى للمناقشة .

إليك زعيمك ، اشبع به ، لست فى حاجة إليه أبداً .

— لِمَ كل هذا ؟ .

— حياة بلا نساء ، يعنى حياة فارغة ، يعنى لاحياة ، أرجوك . عد بى إلى السماء ، على الأقل هناك أمل فى الحوريات .

— حوريات ، لك أنت ؟ ! ! الحوريات فى الجنة ، وأنت لن تبصر الجنة بعينيك .

— إذا لم تكن حوريات الجنة ، فغانيات الجحيم ، وإنى لأراهن خيراً وأفضل ، فهن أسهل منالا وأخف دماً ، ولاشك أن الجحيم سيعج بهن .. عد بى إلى السماء .. عد .. لعن الله حياة زعيمك الفارغة .

— فارغة ! من قال إنها فارغة ؟

— ماذا يمتعه ويدفع الحمية فى رأسه والنشوة فى قلبه ؟ أى حياة أفرغ من حياة إنسان ، ليس له فى النساء ؟

— لن يكون فى حياته فراغ يفكر فيه فى النساء .. إن كل حياته مشغول بالعمل من أجل وطنه والتفكير فى إنقاذ شعبه .

— وهكذا ! !

— أجل ، هكذا . إن هذا من فضل الله عليه ، ما جعل الله

لامرىء من قلبين فى جوفه ، وقلبه هو ملىء بأمته لا يشاركها فيه أحد ، إنه زعيم مثـــالى . . كل مشاعره وأحاسيسه وجهوده وتفكيره من أجل قومه .

ــ إذاً فلن يحس بأنه محروم شيئاً ؟

ــ أبداً .

ــ ولن يتطلع إلى الغيد تطلع العاجز المحروم ؟

ــ أبداً ، أبداً ، لن يشعر بحاجته إليهن قط ، لن يشغلن ذرة واحدة من تفكيره ، ولن يكون لهن عليه سيطرة ولا توجيه .

ــ هذه والله مسألة تستحق إعادة النظر . تقول إنهن لن يكن بذوات تأثير عليه ؟

ــ أجل . . سينظر إليهن نظرة المستغنى المرتوى .

ــ ولن تضعف إرادته أمامهن ؟

ــ أبداً .

ــ ولن يؤثرن عليه بعيونهن أو شفاههن أو نهودهن أو أردافهن ؟

ــ مطلقاً .

ــ ياسلام ، هذا والله واق عجيب من مصدر كبير

للتعاسة .. أنا أعرفهن جيداً .. سلني أنا عنهن ، إنهن حقاً ممتعات ولكن ليس وراءهن غير المصائب والبلايا ، بقدر مايهبن لك متعة يرددنها لك ألماً .. اسمع .

— نعم .

— موافق على هذه الناحية ، هذا الجانب من الزعامة مقبول ومعقول ، فما حطم الزعماء كالنساء ، ولاسيما محدثات الزعامة منهن ، وزعيمنا هذا لاشك ناجح مادام له من النساء واق ، أو مادام زعيم مضاد للنساء ، يجب إبعاد النساء ما أمكن عن الحكم والسلطان .. فهن مهما تلقين من الثقافة والعلم قليلات عقل ، سخيفات تفكير ، سيئات تدبير . ورحم الله أجدادنا عندما كانوا لا يستعملوهن إلا رفيقات فراش ، خادمات دور ، مربيات بنين وبنات ، ذلك هو دورهن الذى يجب ألا يتجاوزنه . على أية حال لا داعى للحديث عنهن الآن ، فما عاد لى بهن شأن مادمت أوشك أن أحل فى جسد زعيمك .

— اتفقنا إذاً ، ستهبط فى جسده ؟

— انتظر .

— أنتظر ماذا ؟

— لم أسمع بقية المعلومات .

ـ اسأل أرجوك ، ودعنا نفته .

ـ عرفنا عن زعيمك ، القليل الأصل . .

ـ قليل الأصل ؟ . ماهذه الوقاحة ؟ !

ـ أليس قليل الأصل ؟ . ابن زنوبة وأبو رابية وليد شارع التلول بالسيدة ، وقبيح الشكل ، وربيب سجون ، وليس بعد كل هذا قليل الأصل . . لاتغضب ، سأسميه رفيع المقام من شارع التلول .

ـ كفى سخرية ، وادخل فى الموضوع .

ـ كنا نقول عن زعيمك عبد الحليم إنه دخل السجن بعد أن ألف الكتاب المنحوس المعروف ، وأنه ليس له فى النساء ، ماذا سيفعل بعد ذلك ؟!

ـ سيقضى مدة السجن فى القراءة والدراسة . . وسيعرف كل شيء عن نظم الحكم وتطورها ، وعن حركات الانقلاب ، وتواريخ الزعماء ، وأسباب انهيار الأمم وعلل فسادها ووسائل علاجها وتطور نهضتها .

ـ كل هذا يقرؤه فى السجن ؟ !

ـ أجل .

ـ وبعد ذلك ؟ .

ـ يخرج من السجن ، ونفسه مليئة بالسخط والمرارة

وذهنه ملىء بالمشروعات الضخمة وجلائل الأعمال ، وقد خرج من كل ما لاقى وأحس وجرب ، بفكرة واحدة هى أن هذا البلد بلغ من الانهيار نهايته ، وأن شيئاً ما لابد أن يحدث ، انفجاراً ، أو تحولا ، أو انقلاباً ، وأن كل ما قرأه من تواريخ الأمم ، والزعماء ، ينبىء أنها بلغت حداً يجعلها فى انتظار حادث جلل .

— مفهوم ، مفهوم ، هذا شىء كنا كنا نردده ، لم يأت هو بشى من عنده .

— انتظر يا أخى لا تتسرع .

— انتظرت ، قل ماذا سيفعل بسلامته ؟ .

— يجد أن الأمة فى انتظار حادث جلل ، وهذا الحادث الجلل الذى سيغير حالها إما أن يكون فى صورة ثورة عاتية عارمة تأتى على الحرث والنسل وتودى بالأخضر واليابس وتسلم مقاليد الأمة من كبار فجارها ، إلى صغار أشرارها ، وتقذف بها وراء المدنية مئات الأعوام ، وتنقل عمليات السرقة والسلب والنهب من اللصوص المتخومين الذين شبعوا إلى اللصوص المحرومين الذين لم يشبعوا ، وتتقاذف الأمة الأنواء بين الجهال الطامعين ، ونصبح كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

ـ هذا أمر .

ـ والأمر الثانى ، هو أن تبدأ بها حركة إصلاح قوية راسخة متينة ، تمسك البلد من أسفلها .

ـ ماذا تعنى بأسفلها ؟ .

ـ تصلح الشعب نفسه .

ـ والحكام ؟

ـ قلت إن هذا النعل من ذاك ، وهؤلاء الحكام من هذا الشعب ، فإذا صلح صلحوا ، وإذا لم يصلحوا ركلهم الشعب بطرف حذائه بعد أن كانوا يدوسون على عنقه بأحذيتهم .

ـ إذاً فصاحبك الزعيم سيبدأ بإصلاح الأمة من أسفل؟

ـ أجل .

ـ ما شاء الله ، مُتْ يا حمار حتى يجيء لك العليق .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أن صاحبنا لن يتمتع بزعامته قط فى حياته ، ولن يرى لها أثراً ، فإصلاح حال هذا الشعب عملية تحتاج إلى أجيال وأجيال .

ـ أبداً ، أبداً .. إنه سيبدأ بها على نطاق ضيق ، يجمع حوله بضعة أفراد ويرشدهم إلى تعاليمه المخلصة الأمينة ،

ويبث فيهم دعوته الصالحة الطيبة .

– كما يفعل الأنبياء ؟ .

– شيء أشبه بذلك .

– وهل سيصدقه الناس ويؤمنون برسالته ؟

– هنا تظهر قيمة الزعيم ، وطريقة خلقه ، وقدرته المطبوعة . . إن إيمان الناس وعدم إيمانهم ، يتوقف على أصالة الزعيم وعدم أصالته . . أخلقه الله زعيما ، أم هو مدعى زعامة ؟

– إذاً فسيؤمن الناس بدعوته إلى الصلاح والجد والاستقامة والعمل الصالح .

– إيماناً قوياً ، سريعاً ، وستسرى دعوته مسرى النار فى الهشيم .

– أنت تذكرنى برجل كانت له نفس البداية . . ولكن لم يستمر حتى النهاية ، لأنه تحول وتعجل وتسرع .

– لا ، لا ، زعيمنا هذا ليس له شبيه فى معشركم ، إنه نسيج وحده ، إنه زعيم حقاً . إن دعوته ستتعدى نطاقها الضيق إلى محيط أوسع ويلتف حوله الناس زرافات ووحدانا فيأخذ فى تنظيم حركته ويبدأ الإصلاح من أسفل . . إصلاح الجموع والجماهير . . ويبث فيمن حوله أن يبتدئوا

بأنفسهم وأن يصلح كل تابع له نفسه أولا ويطهرها قبل أن يطالب بتطهير غيره أو المجموع ويغرس فى قلوبهم الإيمان بالله وبالوطن وبه ، ويدفعهم إلى الإخلاص فى عملهم مهما حقر وضؤل ، وفى فترة وجيزة يصبح مسموع الكلمة نافذ الرأى .

— وماذا بعد ذلك ؟ ! ماذا يفعل به الحكام والمسئولون وماذا يكون موقفهم إزاءه ؟

— يتخوفون منه . . ويخشون تضخمه . . ويأخذون فى محاربته ، ويبدأ النضال بين أنصاره والحكام .

— وينتصر الحكام طبعاً ؟ !

— لا . بل ينتصر أنصاره . ويقفزون به إلى منصة الحكم .

— مرحى . . هذا شىء طيب ، شىء يشجع على القبول ستعوّض أبهة الحكم ومتعة السلطان . . مذلة السجن وآلام الحرمان . . حدثنى عما يفعل وهو فى منصة الحكم ، كيف يتمتع بزعامته ؟ حدثنى عن ثرائه ومواكبه وعن الحراس والخدم والحشم ؟ حدثنى عن وسائل الرفاهية والنعمة وعن العز والجاه ؟

— لن يتمتع بها قط .

ـ لِمَ ؟

ـ سيختلف مع العصبة من أنصاره التى اعتلت معه منصة الحكم .

ـ زعيم أحمق . . ليس له فى الطيب نصيب . . ولِمَ الاختلاف ؟

ـ سيجد أنهم قد تحولوا بمجرد الوصول إلى منصة الحكم . فأضحوا كسابقيهم ، وبهرهم السلطان فأنساهم مبادئهم ، وشرعوا يفعلون ما نهوا عنه واستبد بهم الكِبر والغرور ، فتنحى عنهم وعن الحكم .

ـ ويعود إلى الشارع ؟

ـ بل إلى السجن .

ـ سجن ؟

ـ أجل .

ـ ويضعه أنصاره فى السجن . . إذ يدركون مدى خطره عليهم . . ويخشون إن هم تركوه طليقاً أن يزلزل مقاعد الحكم بهم وألا يمكنهم من التمتع بما تمتع به سابقوهم من استغلال النفوذ والانتشاء بأبهة السلطان والتمتع بمنافعه .

ـ وماذا يفعل صاحبك خدن السجون ، ورب السوابق ؟

ـ يودع غياهب السجن .

ـــ وماذا يفعل فى غياهب السجن ؟! يعود طبعاً إلى القراءة والتحصيل والدرس ؟!

ـــ لا . . لن تسنح له الفرصة لذلك .

ـــ ولِمَ ؟! لعلهم سيشنقونه !!

ـــ لا .. يثور الشعب من أجله . . وينزل عصبة الطغاة من مقاعد الحكم ويفتك بهم ثم يرفعه من غياهب السجن ويضعه على قمة الحكم .

ـــ لم يكن يصلح معه إلا هذا . . فهو ليس وجه نعمة . لابد من وضعه بالقوة على منصة الحكم . . حتى يتمتع بأبهة الزعامة ولو بالإكراه .. حدثنى ـــ أرجوك ـــ بالتفصيل عن أيامه فى الحكم . . حدثنى ، وتمهل فى حديثك ، كيف يبدو ؟ وماذا يفعل ؟ وماذا يقول عنه الناس . . حدثنى بإمعان وإسهاب عن متحته بالسلطان .

ـــ ليس هناك ما يستدعى الإسهاب والإمعان .

ـــ كيف ؟!

ـــ لأنه لن ير السلطان بعينيه .

ـــ لماذا ؟!

ـــ سيرفض .

ـ لمه ؟

ـ ألم أقل لك .. إنه ليس له فى الطيب نصيب ؟ ! ألم أقل لك إنه ليس وجه نعمة .. لماذا يرفض الحكم ؟! إذا كان الشعب بنفسه قد وضعه فيه ؟

ـ سيصمم على أن يظل بمنأى عنه .. حتى لا ينغمس فى حمأته وأن يوجه الحكام دون أن يحكم بل يقف للإرشاد والإصلاح والتوجيه .. وأن يزهد فى كل شىء ، وأن يرفض كل أبهة ومتعة ونعمة ، وأن يكون للشعب زعيما روحياً يقوده إلى حياة قريرة سعيدة .

ـ زعيم روحى ؟! طلعت روحه ، وماذا يفيد هو من هذا ؟ ! لا تقل .. راحة الضمير .. وهدوء البال وتقدير الناس وإنصاف الشعب .. وحسن الختام .

ـ لن أقول لك بالطبع شيئاً من هذا .

ـ ولمه ؟

ـ لأنه .. لأن ....

ـ ماذا ؟ . قل !

ـ لأن .. مسألة التقدير والإنصاف وحسن الختام هذه .. أظنها أمراً مشكوكاً فيها !

ـ كيف ؟!

ــ لن يعدم نفراً من الخبابيل ومخالفيه فى الرأى يقومون باغتياله وقتله بتهمة الخيانة .

ــ خيانة ؟

ــ أجل ، هذا رأيهم .

ــ مدهش ! !

ــ والآن بعد أن شرحت لك كل التفاصيل ما رأيك؟ أتنزل الآن ؟ ! لقد مضى الوقت وزنوبه تكاد تستيقظ !!

ــ . . .

ــ لماذا لاتجيب .

ــ . . .

ــ أين أنت ؟ يا أخا . ياسيدنا ، أين ذهبت ؟ ! إلى أين تعدو ! ؟

ــ . . . إلى فوق . . إلى السماء بلا رجعة .

ــ وهذا الشعب المنتظر ؟ !

ــ ابحث له عن مغفل غيرى ، يرضى أن يكون زعيماله .

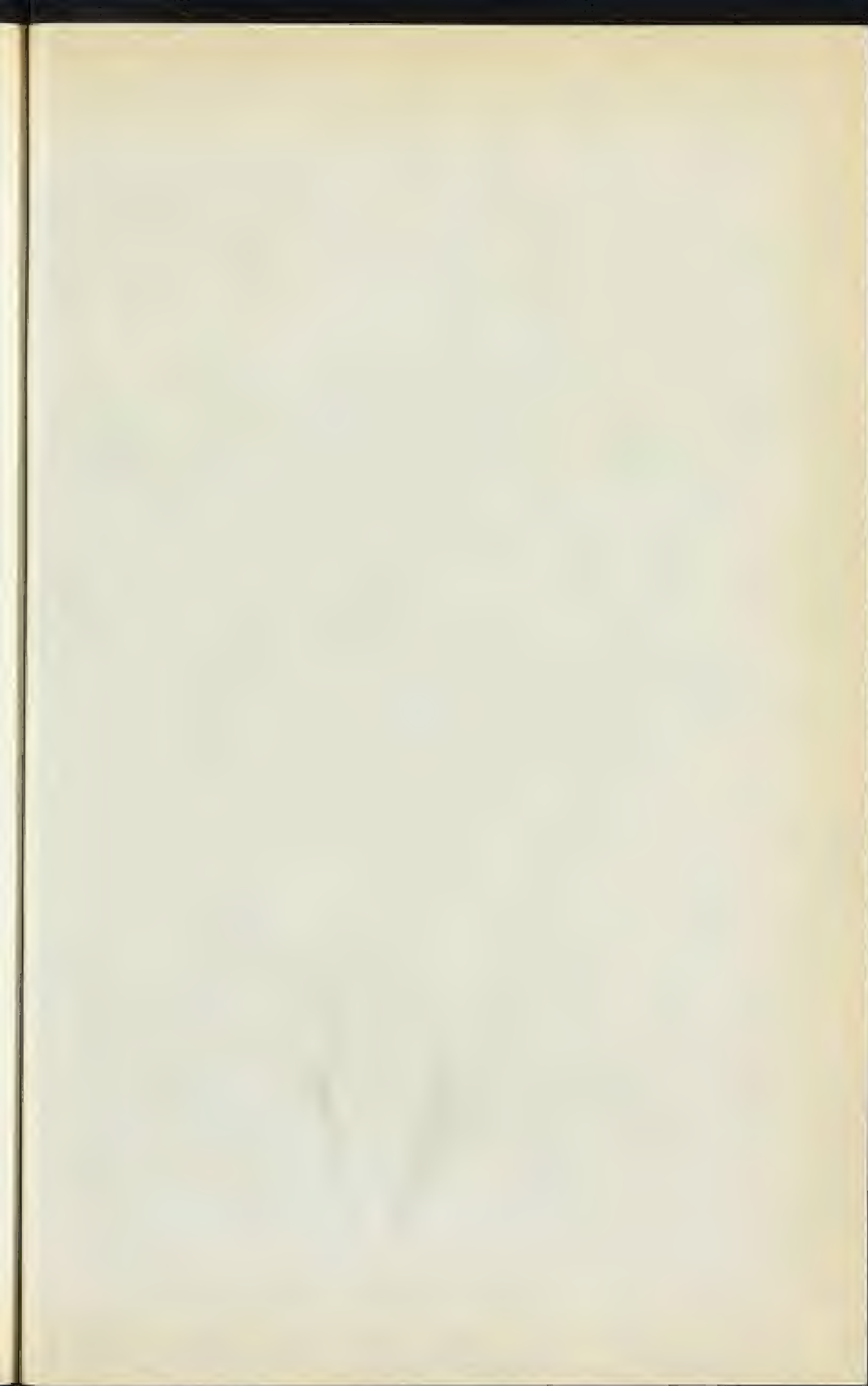
(أنا أعدو فى السماء . . وعزرائيل يطاردنى ، وزنوبه تعاود صراخها ، والشعب التعس ما زال فى انتظار الزعيم)

الفصل الثالث

المنظر الاول

[في القصر الملكي — حجرة الملكة في ساعة ميلاد ولي العهد . المدافع تطلق في الخارج . والهرج والمرج وصيحات الفرح في الداخل . الملكة مستلقاة على الفراش والملك يفرك يديه فرحا . أطباء يروحون وممرضات تغدو . وبين هذا كله أستقر أنا في جسد ولي العهد الرضيع الملقى على فراش وثير ترمقني جميع العيون بالاجلال والاكبار ؛ وعزرائيل يجلس فوق قمة أحد « الدواليب » واضعاً ساقاً على ساق وقد أخذ يهز رأسه ويمط شفتيه] .





عزرائيل يبدأ الحديث :

ـ أخيراً .. أيها المخلوق المتعب استقر بك الحال بعد طول عدو وبحث وتمحيص واختيار ؟

ـ أجل .. أخيراً .. أدخل السجن مرة أخرى ؟

ـ لشدما أرهقتنى .. لم يعجبك ـ كما يقولون ـ العجب ، وظللت ترفض الجسد تلو الجسد .. حتى الزعيم فررت منه وأخذت تعدو هارباً منى فى السماء .. حتى اضطررت أخيراً أن أعرض عليك أقصى مالدىّ .. وهداك الله أخيراً وقبلت أن تهبط معى فى جسد ولىّ العهد .. أراض أنت الآن ؟

ـ لابأس .

ـ لابأس ؟ ! أيها الطماع الناكر للجميل .. أرقدك هذه الرقدة الملكية السامية .. أنت .. ربيب حارة الروم ، وجنينة ناميش .. أرقدك هذه الرقدة التى لم يكن يحلم بها أجدادك .. ثم تقول لى لابأس .. أين كنت تريدنى أن أهبط بك .. إلى جسد نبى ؟

ـ لا .. لا .. هذا أفضل .. إنى لا قبل لى بحياة الأنبياء وجهادهم وتقشفهم ومايقاسونه فى سبيل نشر دعوتهم

لقد رفضت حياة زعيمك ماكن التلول من أجل هذا .

ـــ وهربت مني ودوختني وراءك في السماء أيها الأحمق حتى لحقت بك وعرضت عليك حياة لايجود بمثلها إلا كل قرن .. حياة ملك مقبل .. وولي عهد مرموق .. حياة ليس بعدها على الأرض حياة .

ـــ أتستطيع أن تعطيني فكرة سريعة عنها .

ـــ ولِمَه ؟

ـــ لكى يطمئن قلبي .

ـــ يطمئن قلبك ؟ علام ؟

ـــ على مستقبلي ؟ على حياتي الطويلة القادمة .

ـــ الظاهر أنك لاتفهم وضعك جيداً . . أنت الآن ولي عهد . . أي ابن ملك ، وعندما يموت أبوك الملك ستصبح أنت الملك .

ـــ ومتى يموت أبي ؟

ـــ مالك تتعجل هكذا .. مازال في عمره بقية لتربيتك ورعايتك . . ثم إن حياتك وأنت وليّ عهد ستكون حياة ناعمة هانئة فاخرة .

ـــ خالية من كل جهاد ومشقة ؟

ـــ جهاد ، ومشقة ؟! أمجنون أنت ؟! ليس في حياتك

أى نوع من المشقة . . ليس عليك لكى تعتلى العرش . . إلا أن يموت أبوك . . حتى موت أبيك لن يكون لك فيه أى دخل ، ولن يكون لك به أى اختصاص . . إنه من صميم اختصاصى . . كل شىء سيجىء لك « على الطبطاب » ليس عليك إلا أن تنام فى فراشك ، وتكبر ، وتترك الأيام تمر بك . . حتى تصبح ملكاً . . أرأيت شيئاً أسهل من هذا ؟

ـــ أبداً . . أبداً . . ولكن ماهذا . . إنى أشعر بمغص فى معدتى . . ماذا أفعل ؟ هل عندك شىء يضيع المغص ؟

ـــ عندى أنا . . ليس لى بك الآن أى دخل ، لقد انتهت مهمتى بمجرد إنزالك فى الجسد ، وإذا رأيتنى أجلس لأتحدث معك . . فهو من باب التسلى والسمر ليس غير . . ومن باب التأكد من قيدك فى الجسد ، فأنا أعرفك « بنغزة » وقد لايعجبك شىء فى حياتك الملكية ، فتعدو ورائى وتترك ولى العهد جثة هامدة ، والمفروض أن أتركك الآن بعد أن قيدتك فلا أعود إليك إلا لأقبض روحك بعد عمر طويل ، ولكن يبدو لى أنه لابد من النزول إليك من آن لآخر ، إذ أخشى أن تفسد حياتك . . فروحك ـ فيما يظهر لى ـ لم تتعود السلطنة والأمارة ، ولا شك أن الفترة

التى قضيتها فى ربوع السيدة ستؤثر عليك وتحاول أن تهبط بك من علياء الملكية ، وإنى لأشعر أنى قد ارتكبت مغامرة كبيرة ، ولكن ماعلينا . . لقد فعلتها . وانتهى الأمر . . على أية حال . . إذا شعرت بحاجة إلىّ . . . .

ــ أنا لا أشعر الآن إلا بالمغص .. لقد بدأت متاعب الحياة . . كنت من قبل لا أشعر بهذه الآلام الأرضية الجسدية . . مغص . . زكام . . صداع . . وكنت أظن أن الأجساد الملكية لا تتأثر بمثل هذه الأشياء الشعبية . . ولكن أحس الآن بأمعائى تتلوى من الألم . . أرجوك . . إما أن ترفع الألم .. أو ترفع روحى من ذلك الجسد الضئيل الذى حشرتها فيه . . أرجوك .

ــ ما هذا الهذيان ؟ أرفع الألم .. أو أرفع روحك ؟ قلت لك إنه لم يعد لى بك ولا بألمك ولا بروحك شأن .

ــ وماذا أفعل بهذا المغص الذى يمزق أحشائى ؟

ــ اصرخ .

ــ أصرخ ؟ ! وما فائدة الصراخ ؟

ــ إن الصراخ هو كل ما تستطيع فعله الآن . . إذا أردت أى شىء فاصرخ أنت . . وعليهم الباقى .

ــ على من ؟ .

– على هذا الحشد من الخدم والحشم والممرضات والأطباء .. إذا شعرت بأى شىء .. جوع .. عطش .. ألم .. مغص .. بل إذا لم تشعر بشىء .. وأردت أن تتسلى .. فاصرخ .

– آه منك أيها الماكر الخبيث .. لقد بدأ يتكشف خداعك .

– خداعى ؟ .. أنا !! .. بعد كل هذا الذى وضعتك فيه .. تقول هذا .

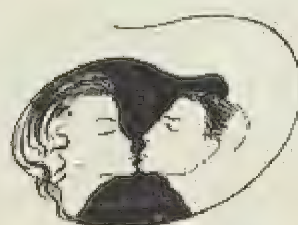
– أجل .. ضحكت علىّ .. وقلت لى .. ملك .. وولىّ عهد .. وجسدك السامى .. وحياتك الملكية .. ثم حشرتنى فى جسد لا يملك مدة عام سوى الصراخ .. عام كامل سأقضيه هكذا راقداً على ظهرى .. أخرس .. مقعداً .. كسيحاً .. رقدة تساوى فيها ولىّ العهد .. مع ولىّ الله .. أى فارق بين رقدتى هنا ورقدتى منذ عشرات الأعوام فى حارة الروم ؟ ! كنت أصرخ هناك .. واصرخ هنا (أبدأ الصراخ فتقبل ممرضة أجنبية حسناء ، وتتحسسنى فى رفق وتفحص اللفائف التى لف بها جسدى الضئيل)

– أرأيت الفارق ؟

– رأيته .

ـ كنت فيما مضى . . تصرخ . فتقبل عليك . . نجية .
أو أم سيد . . وكان أقصى ما يُفعل بك . . هو أن يهزوك
هزتين . . أو يطبوك طبتين . . أو يتركوك . . تصرخ . .
حتى تنفلق . . أما الآن فلا يكاد يعلو صوتك السامى حتى
يتكأكأ عليك . . حشد من الملائكة الأرضية . .
لورا . . واليزابيث . . ومس مور . . ما رأيك فى هذه التى
انحنت عليك ؟

ـ مدهشة . . صدرها عجيب . . أتظن رفعته هذه
طبيعية . . أم مشدودة بالحمالات ؟



ـ حمالات ؟ . . إنه مرفوع
خلقة . . إنه هو الذى يرفع
الحمالات .

ـ عجيبة ؟! وطاقتا أنفها . .
مالهما ضيقتان هكذا . . إنهما لا تكادان تدخلان الشهيق
أو تخرجان الزفير . . أخشى عليها الاختناق .

ـ لا تخف عليها . . عليك نفسك . . كيف حال
المغص عندك ؟

ـ (أعاود الصراخ . . فتقترب الممرضة . . ويحدث شيء من
الهرج والمرج) . . ظهرها بديع . . رشيق جداً . . لا أكاد

أبصر لها خصراً . . وكأنى بردفيها معلقان فى الهواء . .
ما رأيك فى ردفيها ؟

ــ أتحب الأرداف ؟

ــ جداً .

ــ لعلك إذاً راض الآن . . . ولعلنى لم أخدعك ولم أغرر بك .

ــ (أعاود الصراخ) . . ولكن ما الفائدة ؟! ماذا أستطيع أن أفعل بأرداف الأرض قاطبة ، أو أرداف السماء . . . وأنا بهذا الجسد الضئيل العاجز الممغوص . . . الذى مهما بلغت قدرته ، واشتدت سطوته وصولته . . فلن يزيد ما يستطيع فعله . . عن الصراخ . . تصور . . إن أقصى ما أستطيع أن أفعله بصاحبتنا هذه . . هو أن أصرخ فيها . . لا غَزَل . . ولا قُبَل . . ولا ضم . . ولا لمس . . لا شىء غير الصراخ . . . هى والمغص عندى سواء . . . ما فائدتى بها . . وأنا ملقى هكذا فاقد كل قدرة على التعبير . . سوى الصراخ . . . لا غمز . . . ولا ضحك . . . ولا هتاف « يا حلو » ؟!

ــ لا تتعجل يا أخى . غداً تكبر وتنمو ، وتستطيع أن تباشر بجسدك ما تشاء من المتعات .

ـ غـــداً !! .. أنا أعرف ما سيأتى به الغد ..
أنا أعرف ...

ـ ماذا تعرف ؟

ـ سيمضى عام ، وأنا ملقى هكذا كالكسيح بلا حراك إلا الهز والحركة فى الأرجوحة .. وعام آخر .. أحاول فيه السير .. وأستبدل بالوأوأة .. تهتهة ... وأنا مستمر فى حياتى على هامش الحياة .

ـ إنى أقصد بغد .. أبعد من هذا .. عندما تبلغ مبلغ الشباب ... عندما ...

ـ أعرف .. أعرف .. ولكنى أريد أن أعرض لك .. كيف تتبدد الحياة العام تلو العام .. وأنا بين فاقد الإحساس بها أو محروم متعاتها أو غريق فى أحزانها ؟

ـ يا أخى كفى تشاؤماً وتبرماً ... إن حياتك المقبلة حياة أخرى ... ليس بها حرمان .. ولا أوجاع ولا أحزان .. كل مطلب سيكون ملء يدك .

ـ هراء ...

ـ ستكون ملكا ؟

ـ ولو ...

ـ ماذا سيقف فى سبيل مطالبك ؟

— القيود .. والسدود .
— أية قيود وأية سدود ؟
— قيود التقاليد .. وسدود الأخلاق .. والآداب .
— ومالك ولها ؟
— لا تتغابى .. أنت أدرى بطبيعة الحياة التى أعدتنى إليها ... لا أكسبك الله ولا ربحك .
— أدرى بماذا أيها الوقح .. الذى لاينفع فيه معروف؟
— أدرى بالسدود الحائلة بين الإنسان ورغباته .
— أتريد أن تهدم سدود الله وتطلق الإنسان يعبث فى الأرض؟
— لست أريد هذا .. إنى أريد أن أهدم سدود البشر التى جعلت الإنسان حبيس الحياة .. بدلا من تركه حراً طليقاً .
— ماذا تقصد ؟ ! ما هذه النغمة الجديدة التى تتحدث بها ؟ ! أى تحرر وانطلاق هذا الذى تقصده ؟
— لاأريد من بشر أن يعين نفسه قيما على بشر .. وكل إنسان مسئول عن نفسه وله أن يعمل مايسعد به نفسه مادام لايشقى به غيره .. نحن جميعاً نعرف أوامر السماء ، ونعرف المعصية وغير المعصية .. ونعرف كيف سنلقى الله وكيف سيلقانا الله .. وكل إنسان يعرف أنه وحده سيتحمل

وزر نفسه .. فما بال أولئك البشر لاينفكون يقيمون أنفسهم فى إلحاح ولجاجة . . وسطاء بيننا وبين السماء . . يقيمون الحوائل والسدود ليزيدوا الأرض تعقيداً .

— لابد من نظم للبشر لحماية بعضهم من بعض .

— لست أقصد تلك النظم . . التى تحمى البعض من البعض . ولكنى أقصد السدود التى تدعى حماية النفس من النفس .

دعوا النفس المسكينة فحياتها أقصر من أن تضيعها وراء السدود والقيود . . إن كثرة النظم . . نتجت عنها كثرة المخالفات والأخطاء . . وأصبح الإنسان لايكاد يتحرك وراء رغبة من رغباته إلا اتهم بوزر . . ووجد نفسه إما أن يقف فى الحياة مكتوف الأيدى ، مغمض العينين ، كأنه قطعة من الحجر . . وإما أن يكون مذنباً . . أجل . . لقد نظمت حياتنا بطريقة .. تجعلنا إما أن نحيا مذنبين وإما ألا نحيا . . ووسطاء السماء . . وهم فى قرارة نفوسهم أخبث منا طوية .. وأكثر شراً .. لايفتئون .. ينعبون بيننا .. كالبوم والغربان . . يحشرون أنفسهم فيما لا يعنيهم ، وينصبون من أنفسهم ناصحين مرشدين منظمين فى كل تافهة من توافه الحياة .

— أتريد منى أنا النصح والإرشاد ؟

ــ أرجوك . . أنا فى عرضك . . لقد شبعت نصحاً ، وإرشاداً فى حياتى الماضية . . ويعلم الله أنى لم أعمل به قط إلا فى الظاهر . . وعلى أية حال . . بينى وبين النصح زمن طويل . . كل ما علىّ الآن هو أن أستلق لمدة عام كامل . . أرضع . . وأصرخ . . .

ــ لا . . لا . . لن أقدم لك نصحاً . . من نصح الوعاظ . سأقدم لك نصيحة . . لو ذكرتها وعملت بها فستنفعك طيلة حياتك القادمة . . سأقدمها لك لسببين . . أولها أنى أتوسم فيك الطيبة . . وأشعر ــ بعد الوقت الذى قضيناه معاً ــ أنك ابن حلال . . وتستحق الخير . . وأن المعروف الذى أصنعه معك لن يذهب سدى ، وأنا أشعر أنى أحببتك . ويبدو لى أنك الآخر قد أحببتنى . . هذا هو السبب الأول وهو سبب استلطافى بحت . . أما السبب الآخر فهو سبب مصلحى . . فأنا أشعر أننا قد اشتركنا معاً فى تلك المؤامرة أو المقامرة أو المغامرة . وهى مؤامرة استيلائك على جسد ولىّ العهد ولست أرغب فى فشلها . . ولا أود أن تتلف حياة ملك وتضيعها سدى . . ولما كنت أعتبر نفسى مسئولا معك . . بل فى الواقع أنى المسئول الأول . . فإنى أشعر أنه لا بد لى من المعاونة فى نجاحها . . وذلك بتقديم

النصح لك .. الآن ، وفيما بعد . . عند ما يستلزم الأمر .

ـ قل نصيحتك وأرحني وكفى ثرثرة .

ـ قبل أن أزجيها لك أود أن أفهمك أنها نصيحة شخصية ، وأني أعبر بها عن رأيي وحدى ، وأنها مستخلصة من طول تجاربي مع البشر وخبرتي فى الأرض والسماء .

ـ مفهوم ، مفهوم .. تريد أن تأمرنى بالبر والتقوى وتنهانى عن . . .

ـ لا . . لا . . أبداً .. لست أريد أن آمرك بشيء أو أنهاك عن شيء .. لن أزعجك بشيء من هذه القيود والسدود التى قلت إنها تجعل الإنسان حبيس الحياة وأنها تعرقل بسطة العيش وتكثر من قلاقله ، سأرفعها من أمامك كلها وأتركك ترعى فى منبسط الحياة رعى السائمة فى منبسط من العشب الأخضر . . انطلق فى دنياك بلا قيد ولا شرط ، لكى تحصل على بغيتك الأولى من العيش . . ولكن قل لى أولا ، حتى أكون وإياك على بينة من أمرنا . . ما هى بغيتك من العيش ؟

ـ بغيتى ؟

ـ أجل بغيتك ؟ علام تريد رفع السدود والقيود

والانطلاق فى الحياة . . من أجل ماذا ؟ ما الذى تريد أن تحصل عليه ؟

ــ على . . على . على . . السعادة ؟ أجل إن بغيتى هى السعادة !

ــ تماماً . . نحن متفقان تماماً فى هذا . . السعادة هى بغيتك ، بل هى أيضاً حقك فى الحياة . . ولست بطالب منها شططاً . . بل أنت والسماء متفقان فى هذا . . إن هدف السماء الأول هو سعادة الأرض ، فإذا أنت سعيت إلى سعادتك فأنت محقق بذلك رسالة السماء . . فالسماء لم تصنع الأرض إلا لكى يسعد بها البشر ، ونوايا السماء بالبشر حسنة طيبة ، لايدخل فيها الحرمان أو الشقاء . . إنما هذا من صنع البشر لأنفسهم ومن سوء فهمهم لنوايا السماء .

ــ أرجوك . . قل نصيحتك ، ولا تحيرنى بين نياتنا ونيات السماء ، قل ما هى نياتك أنت ، ماذا تريدنى أن أفعل لكى أحصل على بغيتى ؟ لقد قلت لى انطلق فى دنياك بلاقيد ولا شرط . . والخطايا ؟ من يتحمل عنى عبئها ؟

ــ أى خطايا ؟

ــ التى أنوى ارتكابها . . أتريد منى أن أنطلق وراء السعادة بلا قيد ولا شرط ولا خطايا ؟ أيها الواعظ الماكر

الخبيث ، نطلقني بيد ، وتكبلني بالأخرى . إن كل انطلاقة من الأرض وراء السعادة محملة بالخطايا .

ــ الخطايا ؟ أية خطايا تلك التي تتحدث عنها ؟ إن الخطايا شيء نسبي .. إنها ناشئة عما سميته أنت سدود وقيود موضوعة لتنظيم سبل الحياة ، فهي شيء لا يوجد إلا بوجودها عند ما يوضع بينك وبين ما تريد حوائل . . . إذا تخطيتها ارتكبت خطايا . . فالخطايا ليس لها وجود إلا بوجود الحوائل ، فإذا رفعت الحوائل بينك وبين ما تريد ، فقدت حاجتك إلى تخطى الحائل ، وفقدت بذلك ما تسمى الخطايا .. ولقد قلت لك فى أول نصيحتى . . انطلق فى حياتك بلا سدود ولا قيود . . انطلق لكى تحصل على بغيتك ، ولكى تأخذ ما تريد .

ــ هكذا ! ! هذه والله نصيحة مدهشة . . ليس هناك أسهل ولا أمتع ولا أحب إلىّ من تنفيذها . . ولكن أريد منك إيضاحاً . . من المسئول عن نتيجتها فى الدنيا والآخرة ؟ ! أنت ؟ أتضمن لى ؟

ــ أجل . . أضمن لك كل شيء . . . غير أنى أريد أن ألفت نظرك إلى شيء واحد .

ــ ما هو ؟

— لقد قلت إن بغيتك هى السعادة . . وقلت لك إن تلك أيضاً بغية السماء . فإذا أنا قلت لك ارفع كل القيود والسدود لكى تحصل على ما تريد . . فإنى أريد منك . . ألا تحيد عما تريد .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن الإنسان قد يريد شيئاً . . ويعدو وراء شىء آخر . . أقصد أن غباوة الإنسان أحياناً . . أو دائماً على الأصح .. تدفعه إلى ما لا يريد .

— أيضاً .. لست أفهم .

— لقد اتفقنا على أنك تريد السعادة ؟

— طبعاً !

— والسماء أيضاً تريد السعادة للبشر جميعاً .

— قلت أنت هذا .

— ولا زلت أقوله . . وهو حقيقة لا غبار عليها .

— مفهوم .

— إذاً فالسعادة هى ما يريد الجميع ؟

— أجل .

— إذاً فحقق أنت سعادتك .. بالطريقة التى تحلو لك .. كيفما تشاء وحيثما تشاء ... ولكن دون أن تأخذ من سعادة

غيرك . . وأفضل من هذا . . ساعد غيرك قدر ما تستطيع للحصول على سعادته . . أى أجمل هدفك تحقيق السعادة لنفسك . . ولأكبر عدد ممكن من البشر . . حتى تعاون فى أداء رسالة السماء .

ـ هوه . . هوه . . كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا . . أيها الأفعوان اللولبى . بعد كل هذا ... تعود بى من حيث أتيت . . وتحدثنى عما يجب أن أفعله لغيرى . . إن ما أحققه من سعادة غيرى سيكون على حساب سعادتى . . إما أنا وإما غيرى ؟!

ـ كذب . . وافتراء . . أنا لم أقصد قط هذا . . لم أقل لك احرم نفسك لكى تعطى غيرك . . بل قلت لك لا تسعد على حساب غيرك ... افعـــل كل ما يسعدك بشرطين .

ـ الأول .

ـ أن تضمن حقاً أنه يسعدك . . أعنى ألا تكون سعادتك سريعة الزوال عاجلة المسترد . . وهذا هو ما يفعله ثلاثة أرباع البشر وهو أيضـــاً ما عنيته بالعدو وراء ما لا تريد أو الجرى وراء سراب السعادة وليس السعادة نفسها .

ـ معنى هذا أنى لن أعدو وراء شيء . . لأنه ما من سعادة هناك دائمة أو خالصة إلا ما يدعونه من سعادة الخير والتضحية وإنكار الذات والحرمان . . إلى آخر سلسلة الشقاوات التى يحملونها من السعادة ما لا قبل لها به .

ـ أنا لم أقل لك سعادة دائمة أو خالصة . . ولكنى قلت سعادة ليست سريعة الزوال كومض البرق . . أو قشرة من السعادة تستر وراءها أكداس الشقاء . . إن السعادة لا تكون خالصة أبداً ولا دائمة أبداً ، ولكن العاقل من أقدم على العمل الأطول سعادة والأكثر متعة . . إن المسألة موازنة دائماً بين كمية الشقاء والسعادة التى تنتج عن فعل معين فإذا رجحت كفة سعادته كفة شقائه فأقدم عليه واحتمل شقاءه الأقل فى سبيل الحصول على متعته الأكثر . . أما الدوام فهو مستحيل . . إن الإنسان نفسه غير دائم فكيف تكون سعادته دائمة ؟ . كيف تفرض شيئاً دائماً على شيء غير دائم ؟ ولكن العاقل من أقبل على حياته يقتنص من سعادتها القطعة تلو القطعة . . والفترة تلو الفترة . . . إن الحياة أيام معدودات . . والكاسب فيها من استطاع أن يملأ أيامه بأكبر قدر من السعادة . . إن كل دقيقة يقضيها الإنسان وهو سعيد . . أى نوع من السعادة . . ولأى سبب كان . .

هو ربحه فى الحياة ... والخارج من الحياة بأكبر قسط من السعادة . . (وأعنى بالسعادة . . حصيلة السعادة الناتجة عن حياته كلها) . هو لا شك أقرب الناس إلى السماء . .

— حتى لو أخذها عن طريق الشر ؟

— قلت لك إنه ليس هناك خطايا مجسمة كأنها قائم فى ذاته . . وكذلك ليس هناك شر كشىء قائم بذاته . . إن الشر لا يكون إلا بمظاهره .. ومظاهر الشر .. هى الشقاء ... فإذا لم يتسبب عما تعمله شقاء لك أو لغيرك فهو ليس شراً .

— حتى ولو انطبقت عليه المصطلحات الأرضية للشر ؟

— أجل . . فإذا كذبت ولم تؤذ نفسك ولا غيرك . . فليس الكذب شراً . . وإذا سرقت فأسعدت بالسرقة نفسك أو غيرك . . دون أن تشق سواك . . فاسرق . . افعل كل منكر ما دام فعـــله لا ينتج شقاء . . وعندما أقول لا ينتج شقاء . . لست أحصرها فى وجهة نظرك . . بل فى وجهة نظر المجموع .

— هذا شىء محير .. ومن يضمن لى ألا يتسبب فعلى فى شقاء لأحد . . قد لا أعرفه ؟

— إذا ساورك الشك . . لا تفعله .

— سيساورنى الشك فى كل ما أفعل .. فلا أفعل شيئاً .

ـ لا . . لا . . لن يساورك الشك إلا فيما سترجح فيه كفة شقائك أو شقاء غيرك .

ـ والشرط الثانى ؟ .

ـ أن تفعل كل شىء بقدر . . لا تبالغ فى شىء . . على الأقل حتى لا تفقد طعمه . . إن كل شىء يفقد متعته بالإفراط فيه . . ولذة الشىء إنما هى فى الرشفة الأولى . . والذوق يدرك بطرف اللسان وليس بالولوغ فيما تذوقه . . فإذا ما قلت لك أزل السدود والقيود وانطلق فى مرعى الحياة . . فإياك أن تنطلق فى اتجاه بعيد المدى حتى تبهر أنفاسك . . ويقطع قلبك ، ويضيع جهدك فتلق وسط المرعى لا حراك بك ولا ذوق عندك ولا شعور ولا حساسية . . بل تنقّل فى المرعى وسر وئيداً . . وكل وئيداً . . واشرب وئيداً .

ـ قلت إن الحياة أيام معدودات . . وأخشى أن آكل وئيداً . . وأشرب وئيداً . . فتنفد الحياة وأنا لم أنل منها سوى قسط قليل .

ـ ولماذا تريد أن تأخذ قسطاً وفيراً . . ليس هناك قانون فى الحياة . . . يجعل السعادة تتناسب تناسباً طردياً مع مسبباتها . . إن للسعادة حداً تقف عنده . . كما للألم

نهاية يتوقف عندها مهما ازدادت مسبباته . . . إن متعات الإنسان محدودة ... ولكل متعة نهاية مهما استمرت مسبباتها . فلذة الأكل لها حد . . ولا يمكن أن تزداد إلى ما لانهاية بازدياد كمية الطعام أو نوعه .. ولذة الجنس ولذة المال .. وكل لذة .. لا بد واقفة عند حد . . . والذى يثكل خمسة أولاد لا يحزن خمسة أضعاف الذى ثكل ولداً . . فلماذا تطمع فى أكبر قسط من الحياة ؟ ! إن كل ما أنصحه لك هو أن توازن قبل أن تقدم على شيء معين نتيجة السعادة والشقاء التى ستحصل عليها منه .. ثم توازن بين السعادة التى ستحصل عليها وبين الشقاء الذى يحتمل أن يصيب غيرك . . فإذا رجحت كفة السعادة فأقبل عليه . . . وأظنني بعد هذا قد أبرأت ذمتى منك . وأؤكد لك أنك لو اتبعت نصيحتى . . فستخرج من الحياة هذه المرة بقسط أوفر من السعادة . . وخاصة بعد أن وهبت لك من البداية كل عناصر السعادة . . والآن أستودعك الله .

— (صراخ شديد .. تقبل على المرضة الفاتنة وزميى) ألا تنتظر برهة حتى يذهب عنى هذا المغص الشديد ؟! قل لى بربك . . أليس عندك شيء ؟

— عندها هي كل شيء . . هي التي ستتولى أمرك . . ألا يعجبك صدرها ؟

— قد يعجبني في المستقبل . . ولكن ماالفائدة . عندما يأتي المستقبل سيكون قد سقط وتهدل ؟!

— لابأس ستجد غيره الكثير . . إن أمامك الحياة باسمة ضاحكة مكتظة بالمتع وتستطيع أن تفعل الشيء الكثير بالجهد القليل . . أمامك أرض طيبة وشعب طيب . . على استعداد لأن يمنحك كل شيء بلا مقابل . . فتذكر نصيحتي . . اجعل هدفك تحقيق السعادة لنفسك ولأكبر عدد غيرك من البشر . . وأؤكد لك أن السعادتين لن تتعارضا . وافعل كل شيء بقدر، واعلم أن السعادة بطبيعتها محدودة المدى فلا تفرط في مسبباتها وإلا فقدت هذه المسببات قدرتها على منحك السعادة .

— اسمع . . اسمع . . ياللخجل لقد حدث شيء .

— ماذا ؟

— لقد فعلتها . . دون أن أشعر .

— لاعليك . . ستتولى هي عنك أمرها .

— لعنة الله عليك . . إني شديد الخجل .

ـ لا تخجل . . لقد كانت سبب المغص . . ستفعلها كثيراً فى المستقبل ، وسيعدونها فعلة ملكية سامية . . وهكذا كل ما تفعل فى حياتك الجديدة . . مهما ساء وقذر ، سيكون فعلا كريماً سامياً . . . احمد الله .

[أغمض عينى وأروح فى سبات عميق]

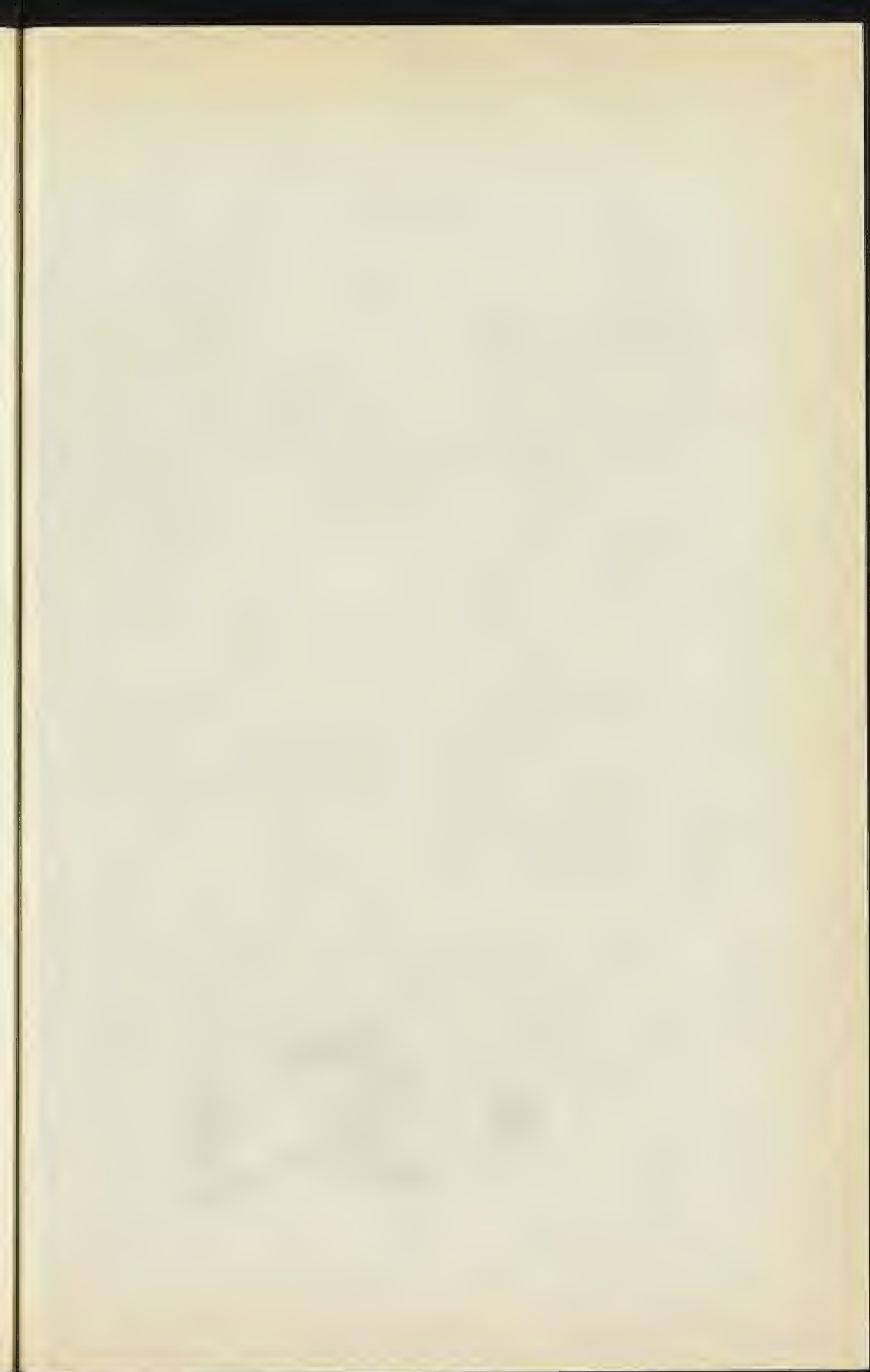


الفصل الثالث

المنظر الثاني

(فى القصر الملكي بعد ثلاثين عاماً . . حجرة الصالون . الملك يروح ويغدو فى عصبية وحوله الحاشية ، ومن الخارج هرج ومرج وهتاف وصياح .. أنا مستقر فى جسد الملك . عزرائيل يهبط فجأة من النافذة . . وقد بدت عليه الدهشة والذهول .)





عزرائيل يبدأ الحديث :

ـ ماهذا ؟ ماذا حدث لك ؟

ـ (في ذعر) أنت ؟ أنت ؟ من . . من ؟

ـ مالك تصرخ هكذا . . ألا تعرفني . . إني صديقك .

ـ أخيراً . . بعد هذه المدة الطويلة تهبط إليّ . . كدت والله لا أعرفك .

ـ وأنا أيضاً كدت لاأعرفك ، لقد أصبحت مخلوقاً آخر .

ـ مخلوقاً آخر ؟ ! ماذا تغير فيّ ؟

ـ ماذا تغير فيك ؟ ! كل شيء . من أين لك كل هذا ؟

ـ كل هذا ؟ أتقصد الملك والسلطان ؟ بالوراثة طبعاً ، ألا تعرف ؟

ـ لست أقصد الملك والسلطان ، ولكن أقصد . . الشحم واللحم ، أقصد الكرش تحت صدرك ، والسنام فوق ظهرك ، إني ماتصورتك قط على هذا الشكل المنبعج المنتفخ ، أذكرك وأنت وليد عندما هبطت بروحك . . كنت مخلوقاً جمّل الله خلقك وسوّى قسماتك ، وأذكرك كذلك عندما هبطت لآخذ روح أبيك ، وقد لمحتك شاباً

وسيما ، جميل التقاطيع ، جذاب الملامح ، رشيق القد ، رائع البنيان . . كنت يومذاك نموذجاً الملك . . لم أحدثك وقتذاك فقد كنت فى عجلة من أمرى ، وكنت فى عجلة من أمرك . . كنت تتأهب للملك ، ولا أكتمك القول أنى أحسست عند رؤيتك بالزهو وملأتنى الغبطة . . لقد شعرت أنى لم أخطىء فيما فعلت ، وأن مغامرتى قد نجحت تماماً . . بل إنها لم تكن مغامرة على الإطلاق . . إذ كانت وضعاً للشىء فى موضعه .

– والآن ؟

– الآن . . أجدك قد أضحيت مخلوقاً آخر ، أعوذ بالله من شر ما خلق ، بل من شر ما فعلت أنت بما خلق ، أين شعرك الذى حلت محله قرعة ملساء ؟ وأين قدك الذى تكور ؟ لشدما ذهبت عنك سمات الآدميين ، لقد صرت أشبه بالفيل الأبيض .

– صه ، ماهذا الذى تقوله ؟ ! هذا كلام يعاقب عليه القانون ، هذا عيب فى الذات الملكية .

– هذا مجرد وصف . . هذا تقرير واقع .

– إذاً فاخفض صوتك ، وإلا سمعك أحد الحاشية . الظاهر إنك قد نسيت نفسك ؟

– أنا الذى نسيت نفسى ، أم أنت الذى نسيت نفسك ونفسى ؟! لا تأبه لى ولا لصوتى . . فما من أحد يسمعنى سواك . . أنسيت ؟

– لم أنس ، ولكنى لم أتعود قط أن يصفنى أحد بتلك النعوت القبيحة التى تنعتنى بها ، تعودت دائماً . . أن أسمع أنى جميل ، وأن النور يشع من جبينى . و . . . .

– وكنت تصدقه ؟

– نعم ، أحياناً ، ولا ، أحياناً . . عندما أكون فى حالة نفسية راضية . . أصدقه ، وأرانى جميل فعلا ، وعندما أغضب وأثور . . أعرف أنهم ينافقوننى ، ولكن ماذا يضيرنى فى كلتا الحالتين . . مادام القانون يضمن لى أوصاف الجمال والكمال ، ويعتبر كل ماعداها ، خرقاً له . . يستحق صاحبه عليه العقاب ؟! ماذا يهمنى . . مادمت جميلا بحكم القانون ؟

– وبحكم النفاق والمنافقين ؟

– أجل ! إن كل شىء . . يضمن لى ، أجمل الأوصاف وأبدع النعوت ، ويفرض الرضا على كل من حولى .

– حتى نفسك . . هل فرض الرضا على نفسك أيضاً ؟

– على نفسى ؟! لا أظن . . إن مشكلتى فى الحياة . .

هى الرضا . . إنى أحاول أن أرضى نفسى عبثاً . إنى لا أجد قط ما يرضينى .

— عجباً ! ! عجباً ! ! ما أسرع ما نسيت نصحى .

— نصحك ؟ ! ما هو ؟

— ما الفائدة من تكراره الآن ، بعد أن سبق السيف العذل .

— سبق السيف العذل ؟ ماذا تقصد ؟

— ماذا أقصد ؟ ! ألا تشعر بما وصل إليه الحال ؟ ! ألا تحس بما حولك ؟

— تقصد هذه الهتافات فى الخارج . . إنها مظاهرات تافهة . . سرعان ما تفرقها العصى .

— أيها الغافل ، أما زلت واهماً ؟ ! أما زال هؤلاء الحمق المضللون من حاشيتك يضعون على عينيك غشاوة التضليل ؟

— أنت أيضاً تتهم حاشيتى بالسوء . أنت أيضاً ضدى . . وضد العرش .

— أنا ضدك ؟ ! الظاهر أن التفاهم معك أضحى متعذراً ، إن روحك قد غاصت بين طبقات الشحم فى جسدك السمين وبات الاتصال المباشر معها متعذراً . . إن جسدك الملكى ،

يحول بيني وبينها . . إنس نفسك برهة ، ودعنا نتحدث .

— نتحدث فيم؟! ليس هذا بالوقت المناسب للحديث . أنت ترى الأزمة التي أنا فيها ؟

— إني قد أعاونك عليها .

— تعاونني عليها ؟ . . أتستطيع ؟ .

— لمَ لا . . إن بيننا صداقة قديمة . . لقد سبق أن أنقذتني أنت في أزمة الأرواح التي حلت بنا . . وتطوّعت بالنزول معي .

— أجل . . أجل . . ولكن كيف تستطيع معاونتي ؟

— دعنا نتباحث في الأمر . . ما سبب كل هذه المظاهرات والهتافات التي تسيء إليك . . إني أذكر أنهم استقبلوك استقبالا حافلا عند بداية توليك أمرهم ؟

— أجل . . أنا أيضاً أذكر هذا .

— وأذكر أيضاً أنهم ظلوا يحوطونك بحبهم وولائهم بضع سنين بعد ذلك ؟

— أجل . . أجل .

— هل تذكر أنك تكلفت جهداً كبيراً في كسب محبتهم ؟

— لا أظن . . لا أعتقد أني أجهدت نفسي في شيء . . لقد منحوني حبهم بلا مقابل .

ـ كانوا على استعداد لأن يمنحوك إياه .. كانوا مهيئين لذلك وأغراهم مظهرك به . . فاندفعوا يكيلون لك المحبة بلا حساب . . وينشرون حولك هالة من النور . . فأبيت أنت إلا الانطلاق خارجها . . وهبطت من عليائك . . وانطلقت تعدو مجرداً عن كل ما يستر عوراتك ويحجب نقائصك .

ـ إنى بشر .

ـ أعلم أنك بشر . . ولكنك بشر مميز . . عندما عرضت عليك الأجساد رفضت أن تهبط فى جسد عادى .. حتى جسد الزعيم . . ولم تقبل إلا النزول فى جسد ملك .. فكان عليك بعد ذلك أن ترعى حق الجسد المميز الذى أنزلت فيه .

ـ ماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟! أحرم نفسى ما يتمتع به البشر العادى ؟

ـ لم أقل لك هذا . . إننى عندما نصحتك . . قلت لك حقق هدفك الأول ، وهو السعادة .

ـ هذا هو ما فعلت .. انطلقت وراء هدفى فى الحياة .. انصرفت آخذ حقى منها كما يفعل كل بشر .. وتخطيت كما قلت أنت كل سدود وحطمت كل قيود .

— أنت حقاً قد تخطيت كل سدود وحطمت كل قيود ، ولكنك لم تنطلق وراء ما تريد . . بل انطلقت إلى غير ماتريد . . لقد اندفعت ولكن إلى غير بغيتك . . وهذا هو ماحذرتك منه . . لقد رفضت السدود وانطلقت كالحصان الجامح الثائر الذى يظل يعدو إلى غير غاية حتى تقطع أنفاسه وتخور قواه . . لقد قلت لك افعل كل شىء بقدر ولا تبالغ فى شىء . . ألا تذكر كلمتى بالحرف الواحد : « إن كل شىء يفقد متعته بالإفراط فيه . . والسعادة بطبيعتها محدودة المدى فلا تفرط فى مسبباتها وإلا فقدت هذه المسببات قدرتها على منحك السعادة » ؟

— أجل . . تلك هى المصيبة . . لقد استهلكت كل مسببات السعادة . . وتجاوزتها ، ولم أجد بعد فى كل ماحولى سوى أشياء جافة كمصاصة القصب التى استنفدت عصارتها ولكن . . ماذنبى أنا . . إذا كنت لم أجد سداً يقف فى سبيلى ؟ ! ماذنبى وأنا لم أجد قط اللجام الذى يوقفنى ؟ ! إنى بشر وكل إنسان له من ظروف الحياة ما يوقفه عند حد أما أنا فقد كنت إنساناً بلا ضابط . . لم يجرؤ أحد ممن حولى أن يضع اللجام فى فمى .

— تلك هى العلة . . أيها المسكين . . إن مصابك هو

أنك إنسان بلا رقيب .. ولقد قلت لك ارفع السدود والقيود ، ولكن لا تجرى إلا وراء الغاية الصحيحة .. وكنت أعنى بذلك أن يكون لك وازع من نفسك .. وأن تعرف أين سعادتك .. ولكنك وللأسف .. انطلقت بلا حد .. وإلى أين ؟ .. فى الطريق العكسى .. طريق الشقاء .. وكان لا بد لك أن تصل فى النهاية .. إلى ما وصلت إليه الآن .. مجرد جسد منتفخ منهك خائر .. أليس كذلك ؟ .

— أجل .. أجل .. ولكن .. يعلم الله أنى لست وحدى المسئول .. إن كل بشر له ممن حوله عون على نفسه .. أما أنا فقد تركت وحدى بلا عون .. من أحد .. اللهم إلا أولئك الذين ينطلقون ورائى وحولى يعبون مما أعب وينهلون مما أنهل .

— أنت السبب فى ذلك .. فإن صح أنه لم يجرؤ أحد على وضع اللجام فى فمك فلأنك كنت ثائراً هائجاً .. عضاضاً ، رفّاساً . كنت حصاناً شقياً فكفوا أنفسهم شر قيادتك واتقوا عضك ورفسك .. ولم يحاول أحد منهم أن يقودك ، بل انطلقوا وراءك بلا لجام ، وكنت لا تفتأ

ترفسهم الواحد تلو الآخر . . فلم يسلم منك أحد . . ولم يبق لك بينهم صاحب .

– هم الذين أغرونى بأنفسهم . . استخذلوا فطغيت ، وخافونى فبطشت .

– من يعلم أيكم السبب ؟ . وأى الوضعين كان نتيجة الآخر ؟. استخذالهم أم «طغيانك» . . وضعفهم أم بطشك؟

– لاتظلمنى . . هم الذين كانوا السبب . . هم الأسبق . لقد فعـــلوا بى ما لا يخطر على بال بشر . . أؤكد لك أنى لو تركت نفسى ، وانطلقت بلاقيد ولا سد ، مافعلت مافعلت . ولـكنهم لم يكتفوا بأن يتركونى طليقاً . . بل دفعونى دفعاً وزينوا مباذلى وجملوا مفاسدى . . كنت أرتكب المعصية بالليل . . كأى بشر عادى . . ولـكن البشر العادى ، عندما يستيقظ فى الصباح . . يذكر معصيته . . فيشعر بثقلها . أما أنا . . فكنت أستيقظ لأجد نفسى . . أمام العشرين مليوناً ، ماذا تظن ؟ إنسان عاص ؟ إنسان عادى ؟ أبداً . . كنت أجد نفسى : المؤمن الأول، والمسلم الأول ، وموصوفاً بالورع والتقوى ، ممن ؟ . . من شيوخهم وأئمتهم . كنت لاأفعل فضلا . . وكبارهم ينسبون إلىّ كل فضل . . كل شىء بإرشادى ورعايتى والتفاتى . . إذا ضبط فص حشيش

فبفضلى . . وإذا عبر أحدهم المانش . . فبتوجيهى . . حتى وجدتنى فى النهاية . . فاعل كل شىء فى هذا البلد . . وجدتنى على وصفهم : العامل الأول . . والطبيب الأول ، والزارع الأول و . . و . . كل هذا . . وأنا لا أفعل شيئاً . . كل هذا يأتى لى دون جهد . . بل أحياناً . . أفعل نقيضه واتهم به . . قل بالله عليك . . لماذا أفعل الفضل ، إذا كنت أرانى صاحبه دون أن أفعله ؟

— وعلى ذلك كففت عن فعل الفضل ؟

— بالطبع .. إننى لست مجنوناً حتى أكلف نفسى مشقة شىء يأتينى دون مشقة .

— وانطلقت بعد ذلك وراء المعصيات ؟

— لقد قلت أنت أنه ليس هناك معصيات .

— انطلقت وراء المتعة ؟

— أجل . . أنا بشر . . بشر أملك الفراغ والقدرة . . وكل مسببات المتعة . . وبعد كل هذا . . ليس لى من حد .

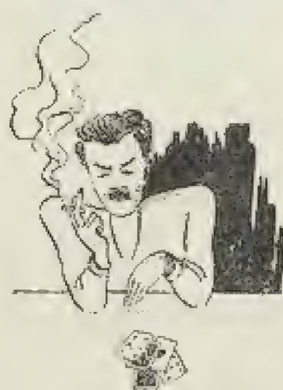
— أيها المسكين . . كنت أشبه بالقربة المثقوبة التى لا تمتلىء .. أنت بائس تعس .. إن كل إنسان فى الحياة له حد يعوقه ويوقفه عن الاندفاع إلى القرار . . كل إنسان يحب النساء .. ولكن له حد من العجز .. العجز فى المال .. أو فى

الوقت . . أو فى الخوف ممن حوله أو فى خشية التقاليد . .
ولكن ماذا كان يحدك أنت . . الوقت أمامك كالصحراء
العريضة لا نهاية لها . . والمال . . زاخر كالبحر لا قرار له . .
والقدرة . . كل الدولة ومرافقها مسخرة تحت أمرك . . من
وزرائها . . إلى مساجينها . ماذا بعد ذلك يحد انطلاقك . .
ويوقف اندفاعك ؟

— شىء واحد كان يوقفنى . . وهو الملل وفقد
الإحساس بالمتعة بعد استنفاد عكارتها .

— وكان عليك بعد ذلك . . البحث عن وسائل
جديدة للتمتع .

— أجل . . ووجدت فى القمار بغيتى . . فما قتل الوقت
غيره . . والمقامر العادى . .
تحده ظروف حياته . . يحده
وقته المحدود وماله المحدود . .
فإذا ما طال به اللعب فلابد
من عامل يوقفه . . إذا كان
موظفاً فلابد أن ينام ليذهب
إلى عمله . . وإذا كان زوجاً



فلابد أن يعود لزوجته . . ثم هو بعد ذلك وراءه من يحاسبه على ماله ووقته . . أما أنا . . فقد كنت مطلق المال ، مطلق الوقت ، مطلق الحرية . . كنت إنساناً بلا حد . إذا ما لعبت فقد أجلس على مائدة اللعب بضعة أيام بلياليها ، لا أكف عن اللعب . . وبجوارى الطعام أتزود منه إذا ما شعرت بجوع .

ـ على أية حال ، كل هذا لم يكن ليودى بك إلى تلك النتيجة لو فعلته خفية ، وكان فى مقدورك ذلك وأن تستتر فى ارتكابه .

ـ وعلام أستتر ؟ إننا نحاول التستر لكى نحجب مفاسدنا فيصفنا الناس بغير ما نحن عليه ، نرتكب الفحشاء فيقولون عنا أتقياء ، ونقامر فيرموننا بالورع . . أليس كذلك ؟ .

ـ أجل .

ـ علام أستتر إذاً . . وأنا أجد الستر جاهزاً . . من عند الدولة ؟ ! علام أستتر . . وأنا مستور بقانون ؟ ! قانون الدولة لا يعتبر مقامرتى وفحشائى عيباً . . ولكن يعتبر العيب فيمن يقول عنى ذلك . . وعلى ذلك . . فقد

كان من الغباء أن أجهد نفسى فى إخفاء معايبى . . ما دام القانون يسدل عليها حجاباً .

— أنت مستور بقانون . . ستار رسمى . . ولكن الشعب كله يعرف ما تفعل .

— وما الضير فى أن يعرف ؟

— يكرهك .

— وما الضير فى أن يكرهنى ؟

— ينصرف عنك .

— هو لا يملك الانصراف . . سلنى أنا عنه . . لقد كان يستقبلنى فى حشد لم أر له مثيلا . . أتدرى متى ؟ ولم ؟ عندما عدت من أكبر جولة فجور فعلتها فى حياتى لقد استقبلونى استقبال الغزاة . . ماذا أريد أكثر من هذا ؟ لقد لبسوا على والدى كرافتة سوداء بعد خمسة عشرة عاماً من وفاته . . لإظهار حزنهم . . وهم يخلعونها بعد وفاة آبائهم بعام واحد . . ماذا أريد منهم أكثر من أن يحزنوا على أبى أكثر من آبائهم ؟ ! لقد وضعوا اسمى قبل الوطن . وقد يضعونه قبل الله . . أتريد أكثر من أنهم بعد كل ما فعلت من فجور جعلونى من أقرباء النبى . . تطوع نفر منهم بذلك . . ولم يعترض منهم أحد . . وقبلوا كل شىء

على العين والرأس . . . علام أستتر إذاً وعلام أتخفى . . . وأنا أدرك كل نتائج التخفى والاستتار ؟

— على أية حال . . لا أظن فسقك وفجورك وحده يحدث هذا الغليان الذى أراه فى الخارج . . لو لم تتعد شرورك محيط نفسك لما أثارت عليك مثل هذا السخط ، ولكن يبدو لى أن اندفاعك قد جاوز حد نفسك ، قلت لك انطلق وراء سعادتك . . وأسعد نفسك . . وكل من استطعت من البشر . . ولكنى أراك أشقيت نفسك . . ثم تجاوزت نفسك إلى سائر البشر فأشقيت سواك . . . قلت لك ليس هناك فعل قائم بذاته اسمه شر . . ولكن الشر هو ما ينتج عنه شقاء . . وكل أفعالك أنتجت الشقاء لك ولأكبر عدد استطعت من البشر . . وهذا هو عين الشر .. أنت كما قلت كالقربة المثقوبة ، لا تمتلىء أبداً . . كلما حاولت أن تجمع شيئاً تسرب منك . . وكان آخر رغباتك جمع المال وكان المال يتكدس حولك .. ولكن لا يستقر فيك . . لم تكن تشعر به قط ، ولو شعرت به وبمقداره ما فكرت فى أن تزيده أنملة . . ولكن نفسك فقدت الإحساس بكل شىء وبعد ذلك عدت تلعب بمصاير الناس والبلد لعب الدمى .

— كانوا كلهم أمامى كالدمى . . فلم أملك إلا أن ألعب بهم لعب الدمى .

— أيها المسكين . . لشد ما أخطأت الطريق . . أنظر فى النافذة التى أمامك . ماذا ترى ؟

— ألمح عن كثب . . أمواج الشعب الهاتف الثائر .

— هذا من صنعك . . انظر من النافذة التى وراءك . ماذا ترى ؟

— لست أرى شيئاً .

— انظر جيداً . . هناك أشياء كثيرة . . لا تراها . . لأنك لا تحاول أن تراها .

— لست أرى شيئاً .

— قل ماذا وراء النافذة ؟

— فراغ .

— ماذا بالفراغ ؟ ! م يتكون الفراغ ؟

— سماء . . وهواء . . وحديقة خضراء .

— هذا هو الذى لا تراه . . وهذا هو الذى صيرته أنت فراغاً . هذه الحدائق الممتدة . هذا الأمن والطمأنينة. هذا الجاه العريض والنعمة السابغة .. هذا الفيض من النعيم الذى لا يشعرك بالحاجة إلى أى شىء . . هذا الإغداق . .

من الله . . والطبيعة والبشر . . هذا الذى يستقر صاغراً أمام إشارة من إصبعك . . هذه الحياة المستقرة الهادئة . . ذات المال والبنين . . هذا الحب الذى تمتعت به . . بل حتى الخطايا المحدودة المستترة التى كنت تستطيع أن تتمتع بارتكابها كغيرك من عباد الله . . . كل هذا . . قد رأيته فراغاً . . بل لم تره أبداً . . وتجاوزته لتعدو وراء السراب البعيد . . . لقد استقللت تلك النعم على ملك . . وكرهت أن تتساوى مع سائر البشر فى نعمائهم ، وتطلعت إلى شىء أكثر وأكبر . وتجاوزت هذا وعدوت وراء الأفق الفارغ . . كرهت أن تكون لك معدة محدودة . . تمتلىء كما تمتلىء بقية المعدات غير الملكية . . فأقبلت بنهم على كل ما أمامك ، ولكنك وجدت نفسك تمتلىء كبقية الناس . . ولم تقتنع بأن قدرتك على السعادة محدودة كسائر البشر ، وأخذت تلتهم . . حتى وجدت نفسك لا تتذوق شيئاً . . ولم تجد هناك جديداً يرضيك فاندفعت ثائراً هائجاً . . وقد ضاقت السبل أمام عينيك . . كيف تكون ملكا . . . وفى يدك كل هذه الوسائل والقوى . . . وأنت لا تجد مايعادلها من المتع ؟ . . ونسيت ياصاحبى ما قلته لك : « إن السعادة بطبيعتها محدودة المدى فلا تفرط فى مسبباتها وإلا فقدت

هذه المسببات قدرتها على منحك السعادة » .

ــ لا فائدة الآن .. من هذا .. تلك نصيحة فات أوانها ، ولو عادت لى الفرصة لتنفيذها .. ما فعلت .. النصائح هى أضعف الوسائل لإصلاح البشر .. أتلك هى وسيلتك لمعاونتى ؟! أهذا هو كل ما تملك ؟ .

ــ ما الذى تريده منى ؟ .

(الصياح يشتد فى الخارج ، وتسمع أصوات طلقات ، هرج ومرج بين الحاشية) .

ــ أتسمع ؟! لقد بدأ التصادم .. الظاهر .. أن المسألة جد هذه المرة ، ما العمل ؟! قل لى ؟! دبرنى لابد أن تعيننى ، أنت تذكر أنى لم أكن أريد أن أهبط معك أول الأمر .. وأنى نزلت لمجرد معاونتك ؟

ــ أجل .. أجل .. أذكر جيداً .

ــ وتذكر أنك شريك معى فى المؤامرة .. أو كما سميتها المغامرة .. وأنك مسئول عنها ؟

ــ أنا لم أقل لك أن تفعل بنفسك ما فعلت .. لقد نصحتك أول الأمر .

ــ ولكنك قلت لى إنك لن تتخلى عنى .. وإنك ستعاوننى عندما أطلب العون .. لقد وعدت .. ألا تذكر ؟

ـ أذكر جيداً .

ـ وما زلت عند وعدك ؟ .

ـ وما زلت عند وعدى .

ـ إذاً هيا افعل لى شيئاً .

ـ ماذا تريد أن أفعل ؟

ـ أى شيء .. غير النصيحة .. أريد منك معاونة عملية .

ـ كيف ؟! لا أفهم ؟ .

ـ اسمع . أليس عملك هو قبض الأرواح ؟ .

ـ أجل .

ـ حسن . . إنى لن أكلفك بشيء فوق طاقتك . . سأطلب منك معاونة .. هى من صميم عملك !.

ـ لم أفهم بعد .

ـ أريد منك أن تقبض بعض الأرواح .

ـ أقبض بعض الأرواح ؟ أنا ؟

ـ أجل .. أهذه عملية شاقة ؟.

ـ أبداً . أبداً . هذا أيسر ما أستطيع فعله .

ـ إذاً انتهينا . . . سأملى عليك كشفاً بالأرواح غير الموالية للعرش ، فتقبضها وتريحنا منها .

ـ من هم ؟ .

– لنبدأ بزعيم الحركة السرية .. التى لا تفتأ تثير الشعب وتزعجنا بالقلاقل والفتن .

– ومن هو ؟ .

– إنى لا أعرف . . ولكنى لا أظنه يخفى عليك !.

– لن يستعصى علىّ . . سأعرف كيف أجده ! ومن غيره ؟

– عصابته . . حتى لا يخلفه منها خليفة . . فيستمر فى مناوئتى .

– وكم تبلغ ؟ .

– عشرة .. عشرون . . لست أدرى .

– من غيرهم ؟.

– ومن غيرهم . . دعنى أتذكر . . أجل ، أجل ، زعيم حزب الحرية ، الذى لا يفتأ يغمزنى على صفحات جريدته ، والذى يكتب عن أملاكى ، ويندد بأعمال الحاشية .

– ومن معه ؟ .

– سكرتير الحزب .

– فقط ؟.

– وبقية أعضاء الحزب .

– ومن أيضاً ؟ .

ـ قلت لى ومن أيضاً ، دعنى أتذكر . . هـذه فرصة للتخلص منهم جميعاً والراحة من عنائهم وسخافاتهم ووطنيتهم . . اسمع تذكرت ، أعضاء « البرلمان » أصحاب الاستجواب المعهود ، الذى فضحونا به .

ـ كم يبلغون ؟

ـ أظنهم عشرة ، وأضف إليهم رئيس المجلس الذى ترك الاستجواب يستفحل ولم يقتله فى مهده .

ـ يسيرة ، ومن أيضاً ؟

ـ خذ معهم بالمرة ، النائب الذى طلب تخفيض ميزانية القصر ، لقد كان وقحاً جداً ، دعنا نتخلص منه حتى لا يعود إلى إزعاجنا .

ـ ومن غير هؤلاء ؟

ـ غير هؤلاء . انتظر ، دعنى أفكر ، أجل تذكرت ، رئيس تحرير مجلة الوطنية ، ذلك الصحفى الأخرق ، الذى لا يكف عن الهجوم علينا ، والتحدث عما يجب أن يكونه الملك ، خذه ، وخذ معه محررى الصحيفة .

ـ أيكفى هؤلاء ؟

ـ لا . . لا . . انتظر ، لقد نسيت ، الشيوعيين ، خذهم جميعاً إنهم خطر داهم على العرش .

— والشيوعيون أيضاً ، من تريد غيرهم ؟

— وطلبة الجامعة الذين هتفوا ضدنا ، والذين حطموا صورنا ، ولعنوا ، سنسفيل ، أجداد أبائنا .

— وهؤلاء أيضاً ، ألديك أعداء آخرون ؟

— أجل ، أجل . . طلبة المدارس الثانوية ، هؤلاء الصبية الحمق ، لقد سبونا وهتفوا بسقوطنا .

— ومن أيضاً أعداؤك غير هؤلاء ؟

— لقد نسيت . . الإخوان المؤمنين . . خذهم أيضاً ، إنهم أكبر خطر على عرشنا ، خذهم كلهم .

(تزداد الضجة في الخارج وتقترب من أبواب القصر وتزداد الطلقات)

— إن المسألة تبدو خطيرة جداً .

— أجل . . أجل ، يبدو أنهم قد حطموا أبواب القصر أسرع . . أسرع ، وإلا فات الوقت .

— أهؤلاء وحدهم من تريد أن آخذ أرواحهم ؟

— دعني أفكر ، ما زال هناك أعداء لم أذكرهم . . اسمع ، من باب الاطمئنان ، خذ كل من يكرهونني .

(يسمع صوت فرقعة شديد ، وتتدفق جموع الشعب داخل القصر)

— كل من يكرهونك ؟

— أجل .

ــ أتدرى كم يبلغ عددهم ؟

ــ ليكن ما يكون ، غير مهم عددهم . . أسرع . .
أسرع ، أرجوك .

ــ أنظر ، أترى هذا الحشد الهائل ؟ إنهم كلهم يكرهونك
كل الشعب يكرهك . . أآخذ كل الشعب وأتركك ياصاحب
الجلالة بلا شعب ؟ أظن أنه لن يكون لك قيمة إذا كنت
ملكا بلاشعب . إن ملكك مستمد من وجوده ، وسلطانك
مستمد من كيانه ، وأنت بغيره لا شيء . . أنت بغيره
كزاهد فى صومعة ، أو تائه فى صحراء ، وإذا أخذته
يا صاحب الجلالة ، فلن تستطيع أن تصنع شعباً غيره . أما
إذا أخذتك أنت . .

ــ أنا . . أيها الخائن ، أنت أيضاً من الثوار ؟

ــ مهلا يا صاحب الجلالة ، إذا أخذتك أنت ، فليس
أسهل عليه من أن يصنع غيرك ، صنع الملوك سهل ، وصنع
الشعوب مستحيل .

(تدخل الثوار الى الصالة وتنطلق رصاصة تصيب جسد الملك ويخر صريعاً وأصعد أنا بجوار عزرائيل تاركا الجسد ملقى على الأرض)

ــ أيها الخبيث . لقد فعلتها ؟

— لقد خلصتك من أسوأ ما حللت به .. ألست تشعر الآن بالسعادة ؟

— جداً ، ولكن الجسد الملكى .. أستتركه هكذا ملق تحت الأقدام ؟

— كله جسد يا صاحبى ، ملكى وغير ملكى .. إنها أوهام يقضى عليها الثرى ، ويبددها باطن الأرض ، هيا بنا .

— انتظر .. هناك شىء أريد أن أعرفه .

— ماذا ؟ شىء خاص بجسدك الملكى ؟

— لا .. لا .. أريد أن أعرف الزعيم الذى أقض مضجع الملك وثل عرشه .. من يكون ؟

— ها هو ذا .. إنه قادم أمامك وسط الشعب المتدفق .

— أهو هذا ؟ ! ترى من يكون ؟

— إنه عبدالحليم .

— عبد الحليم ؟

— أجل ! عبد الحليم أبورابية ، الذى رفضت أن تحل فى جسده .. أتذكره ؟

— عجباً ! ليتنى سمعت نصحك وحللت به .

— لا فائدة من الندم ، هيا بنا .

— أريد شيئاً واحداً ، لو استطعته ألقيت عن كاهلى عبئاً ثقيلا .

ـ ما هو ؟

ـ أريد أن أنصحه . أريد أن أحذره عما وقعت فيه . أريد أن أكشف له الوصوليين والمنافقين والصحافيين .. أريد أن أحذره من غرور السلطان . أريد أن أطلب منه ألا تنسيه السلطة نفسه كإنسان عاجز زائل . أريد أن أذكره بأن كل شيء إلى زوال ، وإلى نهاية ، وأن الإنسان بقدر مايطغى يذل .. أريد أن أعطيه درساً وعظة .

ـ لا داعي أيها الواعظ ، أنت نفسك كنت أكبر عظة .. والذى لايتعظ بحياتك وجبروتك ونهايتك ، يكون شيخ الحمق ، والمأفونين .

ـ هيا بنا نعود يا صاحبي « إن إلى ربك الرجعى » .



للمؤلف

تحت الطبع

تمثيليات قصيرة

ساكنة الحنايا

فديتك يا ليلى

أساطير الأولين

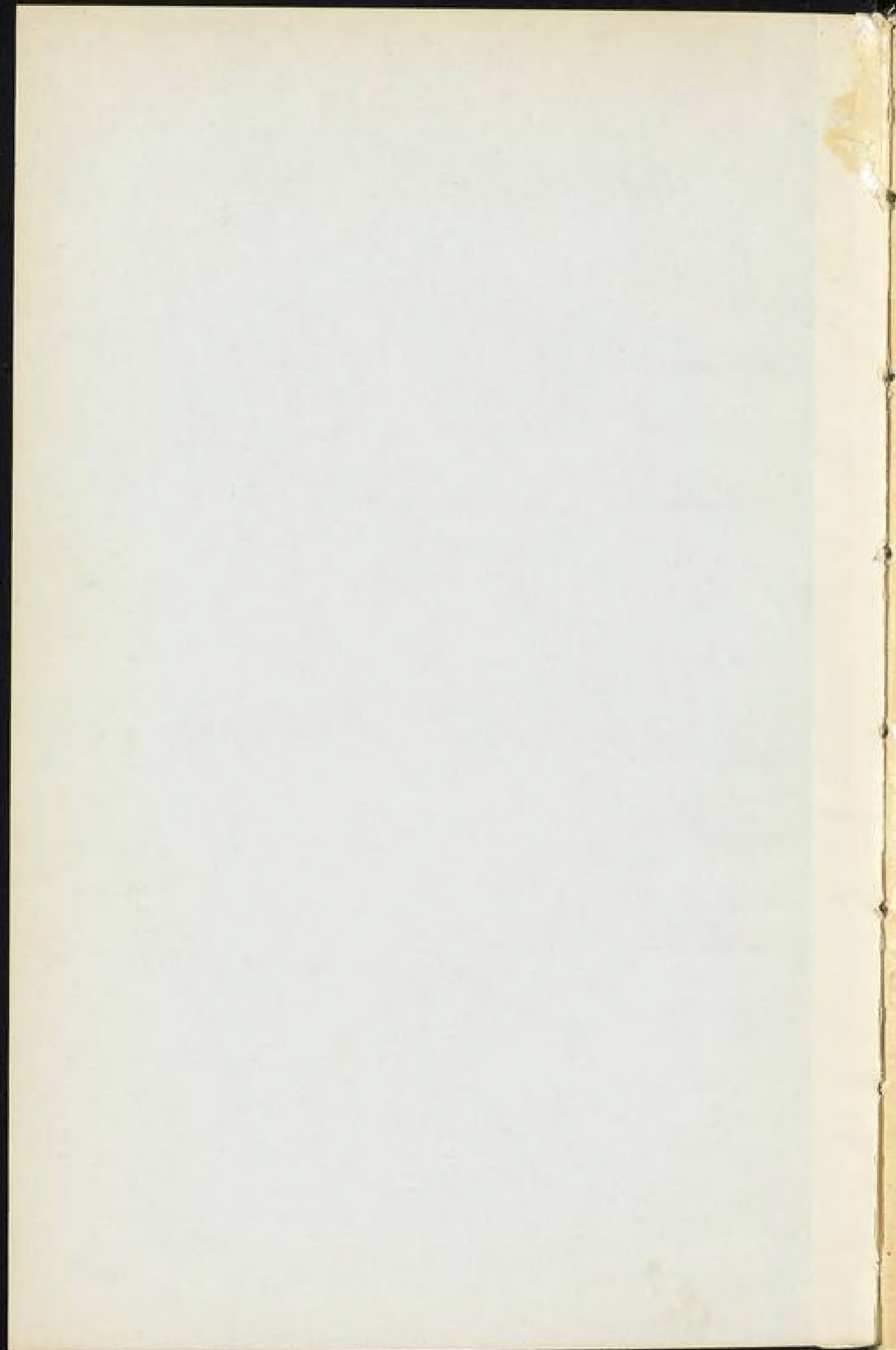
موته لله

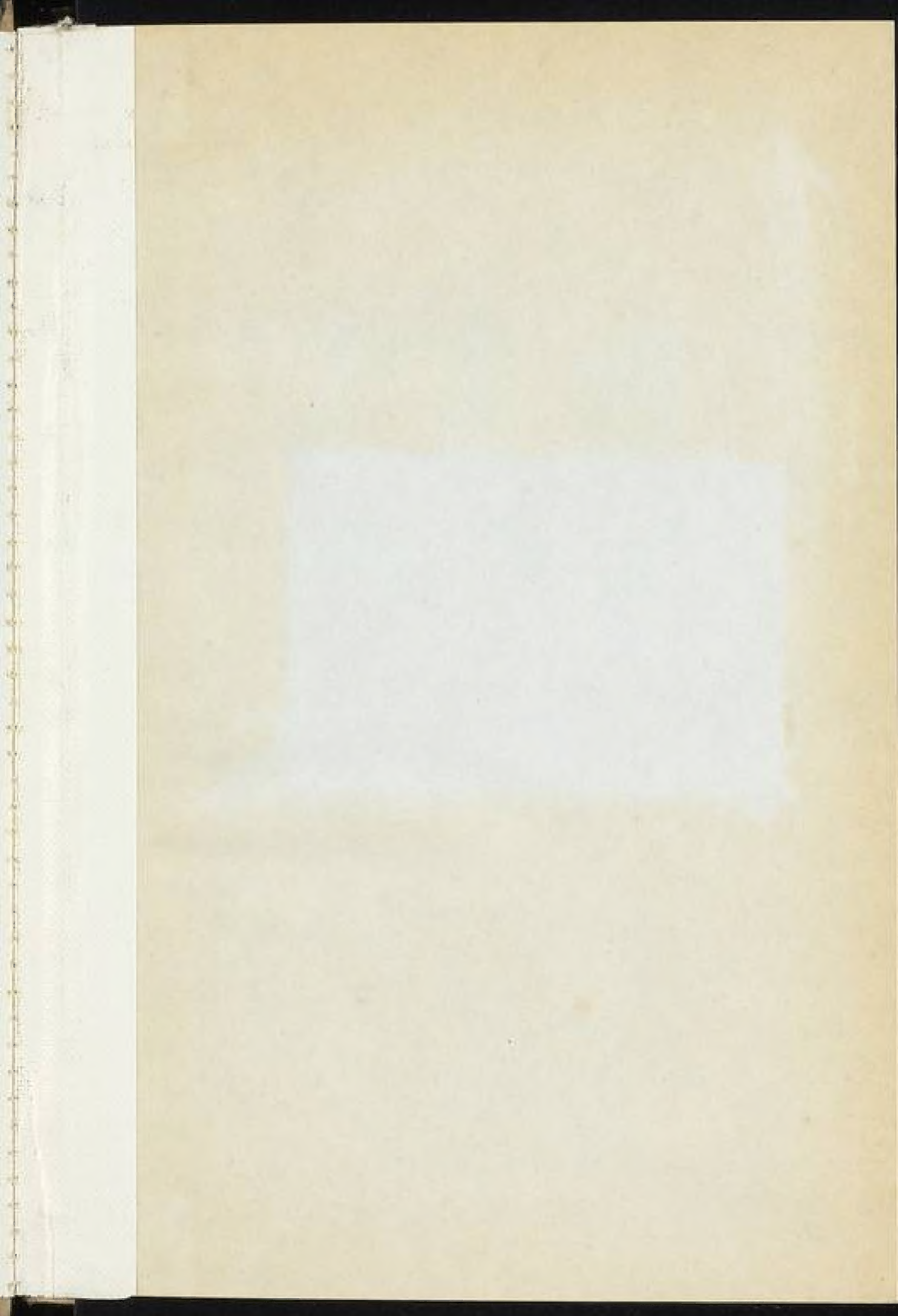
شركة فن الطباعة



الناشر مكتبة الخانجي

شركة فن الطباعة






Princeton University Library
32101 072235854